

أرض السحرة

جمع وتقديم

برنارد لويس

تعريب

حسين نصار

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ (٩) شارع كامل صدقي "الفجالة"

كلمة المترجم

يضم هذا الكتاب ، الذى أضعه بين يدى القارئ العربى ، مجموعة من القصص المصرية القصيرة ، تحاول أن تمثل القصة المصرية وتطورها منذ بداية التاريخ المصرى إلى اليوم . ولما كان التاريخ المصرى يحوى حقبتين متميزتين : الحقبة القديمة ، والحقبة الإسلامية ، اشترك فى جمع هذه القصص عالمان : أحدهما مختص بالحقبة الأولى ، والثانى بالثانية . ولكن يبدو أن ثانيهما كان صاحب فكرة الكتاب ، والعامل على تنفيذها ومراعاتها فى الكتاب كله ، ولذلك نُسب الكتاب إليه .

وبالرغم من أن القصص وليدة مراحل متباعدة من الحياة المصرية ، فإنها تكشف خصائص متقاربة . فالأستاذ برنارد لويس ، كما يتضح من مقدمته ، وصلت به دراسته فى القصة المصرية إلى نتائج معينة ، وحاول أن يأتى فى هذا الكتاب بما يؤيد نتائجه من قصص . ولذلك قد يقول قائل إن هذه المجموعة لا تمثل تطور القصة المصرية الحق ، وإنما تمثل رأيا معينا فى تطور القصة المصرية ، وتورد من القصص ما يدعم هذا الرأى . وهذا حق . ولكنه لا يمكن تجنبه ، فكل دارس لا بد أن تنتهى به دراساته إلى آراء يحاول تأييدها ودعمها بالشواهد المختلفة ، وعلينا نحن أن نستبطن

هذه الآراء ونستشف ما فيها من صدق أو زيف ، ثم نفيد بما جلبت من شواهد .

فهذه المجموعة من القصص جديرة بأن يُعتنى بها وتقام حولها الدراسات ، وتتابع الأبحاث من أمثالها ، لنصل إلى مجموعات كاملة من القصص المصرية التي وصلت إلينا من العصور المختلفة التي مر بها وطننا . فنستطيع أخيرا أن نقوم بالدراسة الكاملة الشاملة العميقة على هذه القصص ، وننتهي إلى النتائج الدقيقة الحقة ، القائمة على دراسة النتاج المصري كله لا لون بعينه منه .

ولست أريد أن أطيل القول ، وإنما أحب أن ألفت النظر إلى أمور قمت بها في الترجمة : حذفت كلمة موجزة للأستاذ جن تحدث فيها عما التزمه في ترجمته الإنجليزية ، واستخدامه بعض الأقواس التي أورد فيها مازاده من ألفاظ لإيضاح العبارة ، وغير ذلك مما لا يعنينا في الترجمة العربية . وقارنت نصوص القصص الفرعونية بنصوصها في كتاب الأدب المصري القديم للأستاذ سليم حسن ، وكتاب مصر والحياة المصرية في العصور القديمة لإرمان ورانكه ، من ترجمة الأستاذ محرم كمال والدكتور عبد المنعم أبوبكر ، ونص هيرودوت بكتاب هيرودوت في مصر للدكتور وهيب كامل . وأثبت تعليقاتي عليها وعلى غيرها في أسفل الصفحات ، مع الإشارة إليها أحيانا بالحرف الأول من اسمي « ح » . وتركت بعض الألفاظ العامية التي شككت في ضبطها كما أورده جامع القصص ، ولم أتدخل فيها إلا نادرا جدا .

وأخيرا أحب أن أقدم شكرى الجزل للأستاذ محمود تيمور ، الذى أذن لى بطبع قصته « عم متولى » ، وأشكر للقائمين على مكتبة مصر ودار مصر للطباعة إخراجهم الكتاب بالصورة التى هو عليها بين يدى القارئ .

ورجائى أن يحوز الكتاب ما هو جدير به من ترحيب وعناية ودراسة ، وأسأل الله حسن التوفيق ؟

القاهرة { ١ يناير ١٩٥٨ / ١٠ جمادى الآخرة ١٣٧٧ — حسين نصار



تصدير

يجد القارئ في هذه الصفحات مختارات من القصص المصرية القصيرة ، تعالج موضوعات مختلفة ، ويمتد بها الزمن من المملكة الوسطى فى مصر القديمة إلى اليوم . وعلى الرغم من كون القصص جميعا من قطر واحد ، أتت من الحضارات المختلفة الكثيرة التى ازدهرت فيه ، وهى مترجمة عن اللغات المصرية الوسطى ، والمصرية المتأخرة ، والديموتيقية ، والإغريقية ، والقبطية ، والعربية الفصحى ، والعامية ، والأدبية الحديثة . وأتم الأستاذ بتسكومب جن Prof. Battiscombe Gunn ، من جامعة أكسفورد ، ترجمات جديدة لجميع القصص المصرية القديمة والقبطية . وترجمت بنفسى القصص العربية ، إلى الإنجليزية للمرة الأولى ، فيما أعلم ، سوى قصتين فى نسخة إنجليزية من القرن السابع عشر ، وأقصوصة من ألف ليلة وليلة للين Lane . وأحب أن أنتهز هذه الفرصة لأشكر للأستاذ جن ورسامنا المصرى ، السيد على نور ، سماحهما لى بالاستفادة من نصحهما ونقدهما ، ومعاونتهما المباشرة أيضا .

وواجب أن أوجه الشكر أيضا لمحمود تيمور بك ، لإذنه لى بترجمة قصته « عم متولى » ونشرها .

ب . ل .

مقدمة

قامت فى وادى النيل عدة حضارات ، وازدهرت ، وانهارت ، وكان لكل منها دينها ، ولغتها ، وثقافتها ، ومنظماتها ، وأسلوبها فى الحياة . ولكن بقيت تحتها جميعا وحدة أساسية معينة . فقد حددت الطبيعة مصر تحديدا حسنا — واد ودلتا نهر فرد ، تحدهما صحراء وبحر تحديدا واضحا . واتخذ الإنسان من ذلك النهر أداة للزراعة وطريقا للنقل . ومهما كان حاكم مصر : فرعونا ، أو بطليموسا ، أو قيصرا ، أو خليفة ، أو سلطانا ، فى الأبهاء الجرانيتية أو الرخامية فى العواصم المتغايرة ، بقيت الجماهير الكادحة من الزراع تزرع حقولها وترويها ، وتؤلف القاعدة الصماء لهرم اجتماعى . وكان للحاجات والضرورات التى تمليها زراعة تعتمد على النهر وعلى ما يحفره الإنسان من قنوات وترع أثرها فى البلاد . وإذ أضيفت آثار جديدة ، هبطت القاعدة إلى مدى أعمق ، ولكنها لم تزل . ولما كانت طريقة زراعة التربة الغنية لم تتغير إلا قليلا ، كذلك حال العلاقات الاجتماعية التى أوجدتها .

وغير ممكن أن نرى هذا الاطراد فى الحياة الاجتماعية فى المراحل المختلفة من التاريخ المصرى أوضح مما هو عليه فى حب الحكايات وفى طريقة سردها ، اللهم إلا فى قليل من الميادين الأخرى. فقد أحب المصرى دائما القصة الجيدة ، وأحسن سردها .

ونستطيع أن نتتبع التنوع والغنى اللذين أصابهما قليل من الموضوعات الأساسية ، فى الطراز المتطور الذى كانت عليه القصة المصرية ، ورسم على النطاق الفسيح الذى شغله التاريخ المصرى .

وقد عرفنا معظم ما عرفناه عن أقدم تاريخ لهذا القطر عن طريق الحفريات ، مع قدم مدونات مصر . فأمكن أن نعيد إقامة صورة لوادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ ، من تقارير المنقبين المتعاقبين ، بعد تصنيفها وتكملتها على هدى الشواهد الأدبية فى العصور المتأخرة . فرأينا جنسا من متوحشى العصر الحجرى ، يعتمد فى معيشته على صيد الحيوان والسمك ، ويعيش فى قرى منعزلة على أطراف الصحراء المتاخمة لواد من المستنقعات والغياض التى تتكاثف فيها أشجار البردى والقصباء وتسكنها أفراس البحر ، والخنازير الوحشية ، والفيلة ، والتماسيح ، والطيور المائية . وقام هؤلاء المصريون الأولون بثورة ذات دلالة بعيدة المدى منذ قريب من ستة آلاف سنة أو أكثر . فقد عرفوا رعى القطعان وإنماء الحبوب ، بالاستفادة من الرى الطبيعى الذى يمنحهم إياه فيضانات النيل أولا ، ثم بتجفيف المستنقعات وتنظيفها بعد . وزودتهم الصخور الكثيرة فى الصحارى بالأسلحة والأدوات الأولى . ولكن النيل كان طريقا أيضا : فربطت القوارب الصغيرة البدائية المصنوعة من أعواد البردى قرى الوادى والدلتا ، بينما عبرت القوافل الصحارى باحثة عن سلع لا توجد فى مصر .

ومنذ قريب من خمسة آلاف وخمس مئة سنة مضت كانت الزراعة والتجارة قد تطورتا تطورا كافيا للسماح بتقدم دولة واحدة ، بل كافيا لإبانة ضرورتها . ونرى ، من مقابر أبيدوس الملكية ، في مصر العليا ، كيف صهر مينا ، وهو رئيس جماعة كانت تتخذ النسر شعارا (طوطما) لها ، الوادي والدلتا في مملكة واحدة ، تعرف باسم مملكة مصر القديمة ، وأخضعها لسلطانه . وفي النصف الثاني من السنوات الألف الرابعة ق . م . جفف فراعنة المملكة القديمة المستنقعات ، ووسعوا مجال الري ، وشيدوا المدن ، ونظموا التجارة الخارجية ، برا وبحرا ، لجلب ما تحتاج إليه مصر من خشب ومعادن . ولكن ربما كان أهم عمل في المملكة القديمة تطور الكتابة . فقد احتاجت زيادة ذخائر المعابد والقصور ونمو الحكومة المركزية القوية التي تحكم بواسطة إدارة عامة ، إلى نظام من التقارير والمدونات ، ولسد هذه الحاجة ظهر إلى الوجود (سر) الكتابة المخصص ، موجدا معه طبقة اجتماعية جديدة من الكتبة والنساخ والإمكانية الثورية لتدوين المعرفة ، وجمعها ، ونقلها .

وانهارت المملكة القديمة بعد عام ٢٣٠٠ ق . م . تقريبا ، وتلتها حقبة من الاضطراب والفوضى ، قسمت السلطة السياسية فيها بين جماعة من حكام الإقطاعيات المتخاصمين . واستمرت الحياة الاقتصادية ، وأفسح عدم وجود دولة مركزية قوية المكان لنمو طبقة تجارية جديدة . وفي مستهل الألف الثاني من سني ما قبل

الميلاد ، استعادت مصر الوحدة السياسية ، على يد أمنمحعت الأول (٢٠٠٠ — ١٩٧٠ ق . م .) ، الذى أنهى اضطرابات الحقبة السابقة وأقام المملكة الوسطى ، وهى مملكة ذات طابع إقطاعى قائمة على تفضيل أمراء طيبة السابقين . وتعد المملكة الوسطى إحدى القمم فى التطور الثقافى فى مصر القديمة ، وإن لم تبق إلا قرنين . وقد أسقطها الهكسوس ، وهم شعب آسيوى غزا مصر حوالى ١٧٣٠ ق . م . وشيد مملكة همجية مؤقتة ، عاصمتها فى الدلتا .

ومنذ المملكة القديمة ، عرف الناس بعض الإمكانيات التى لا حد لها لفن الكتابة الحديث ، على الأقل . فظهر فى هذه المدة الأدب الرياضى ، والعلمى ، وربما بعض الأدب الحكمى . ومعقول أن نفترض أنهم فى فن القول قاربوا المستوى العالى الذى بلغوه فى الفنون البصرية إن لم يكونوا ساووه . وتطور الفن ، المتولد عن سجلات القصر وسحر المعبد فى الدولة المصرية الأولى ، فى حرية أعظم مما كان له فى الحقبة التى تلت انهيار تلك الدولة ، وبلغ فى ظل فراعنة المملكة الوسطى مرتبة من الدقة واتساع الأفق جعلت كتابات تلك الحقبة النموذج التقليدى فى اللغة والأسلوب لعدة قرون . وقد وجدت القصة باعتبارها من الصور الفنية منذ بدء ظهور الأدب تقريبا ، وواضح أن أقدم الأمثلة الباقية ثمرة رقى طويل .

وتكشف واحدة من أقدم القصص المعروفة للإنسان ، أعنى

قصة سنوحي عن مهارة ووعي ذاتي وصناعة ، تبين أنها ليست ثمرة تقليد أدبي قديم حسب ، بل متدهور أيضا . وتوجد أيضا آثار من فن أكثر شعبية لسرد القصص ، لم يستطع الأدب الرسمي أن ينفصل عنه انفصالا تاما أبدا .

وبعض القصص القديمة أسطوري ، وهو ديني أو سحري بصفة جزئية ، شأنه في ذلك شأن معظم الأدب البدائي ؛ وبعضها يمجد رجال التاريخ . ولكن معظم القصص القليلة التي بقيت ليس له دافع أو فكرة وإنما تروى « من أجل متعة السرد البحتة » ، كما يلاحظ بيت Peet . وكان كتبة مصر القديمة في هذا — كما في خلق القصة القصيرة باعتبارها صورة أدبية — يسلكون طريقا جديدا ، لا على مصر وحدها ، بل على العالم .

وحوالي منتصف الألف الثاني من سني ما قبل الميلاد ، نجح أحمس ، أمير طيبة ، في طرد الغزاة الآسيويين وإقامة المملكة الحديثة ، وهي مملكة عسكرية مركزية ، بدأت ، في ظل خلفائه ، توسعا استعماريا في الشام . وكانت الحقبة حقبة تطور اقتصادي عظيم ، تجلى فيها آثار نمو طبقة وسطى كبيرة وثرية في الحياة الفكرية والثقافية . وحاول أمينوفيس الرابع ، المشهور باخناتون (حوالي ١٣٧٠ — ١٣٥٢ ق . م .) فرض إصلاح ديني ، يقوم على عبادة توحيدية للشمس بدلا من التعدد القديم للآلهة . وبالرغم من فشل المحاولة من الجانب الديني ، تركت أثرها في قيام فن وأدب

جديدين . فطرحت لغة المملكة الوسطى وأسلوبها الميتان منذ زمن طويل ، واللذان كانا يعتبران إلى ذلك الوقت النمط الوحيد للأدب ، وترعرع أدب قوى مكتوب باللغة التى كانوا يتكلمون بها فى المملكة الحديثة . ووجدت فى ذلك الوقت جميع الطرق المميزة لسرد القصة المصرية تقريبا — من الحكاية الشعبية ، وحكاية الرحالة الخرافية ومغامراتهم فى البر والبحر ، وقصة البطولة والحرب ، إلى ما هو أهمهم جميعا : حكايات العجائب والسحرة . وكان المجتمع المصرى قد شكل بعض الموضوعات الأساسية للتعبير الفنى عن النفس . وستكيفها القرون والحضارات المقبلة ، وتعيد صياغتها ، وتضيف إليها ، وتزيد ثروتها ، وتزينها ؛ ولكنها لن تغيرها .

وعلى الرغم من وقوع كثير من الأزمات والتغيرات السياسية والاقتصادية ، بقيت حضارة العصر البرنزى للمملكة الحديثة ، فى جواهرها ، إلى سنة ١٢٠٠ ق . م . تقريبا ، حين طوت حركة من البرابرة المسلحين بالأدوات الحديدية : من الغزاة الأحرار ومن الجند المرتزقة الثائرين ، طوت مصر ، ومعظم العالم المتحضر فى ذلك الوقت ، فى عصر مظلم جديد سريعا . فبعد وفاة رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٦ ق . م .) ، الذى أفلح مدة فى صد الغزاة على الحدود ، أخذت إمبراطورية الفراعنة القديمة تتفتت ، ووقعت مصر فى القرون التالية تحت حكم الأسر الليبية ،

والنوبية ، والحبشية ، إلى أن ابتلعتها الإمبراطورية الأشورية المتوسعة فى عام ٦٧٠ ق . م . وعلى الرغم من قصر أجل الفتح الأشورى ، يعتبر النذير بنهاية عظمة مصر القديمة . فبعد قرن أو ما يقرب من قرن من الانتعاش الذى عاونه الظهور المفاجىء لشعب جديد أتى عابرا البحر ، أعنى الإغريق ، التهمت البلاد إمبراطورية فارس الأكمينية فى ٥٢٥ ق . م . ثم فتحها الإسكندر الأعظم فى ٣٣٢ ق . م .

وفى حقبة الانحلال السياسى الطويلة بين الغزو الهمجى فى القرن الثانى عشر ق . م . والفتح المقدونى فى ٣٣٢ ق . م . استمرت الحياة المتحضرة ، وإن أضعفها وأفقرها الانحطاط السياسى والاقتصادى . وعاشت اللغة والأدب المصريان المتأخران ، المحرومان من شعبيتهما وشخصيتهما الطبيعية منذ أمد طويل ، عاشا قريبا من خمسة قرون باعتبارهما أداة أدبية متحجرة stylised ومنحطة ، على حين أخذ أسلوب جديد وأكثر اتصالا فى الكتابة ، هو المسمى بالديموتيقية ، يحل فى الاستعمال العام محل الخط « الهيراطيقى » الكهنوتى الذى كان يستعمل منذ المملكة القديمة ، منذ العصر الصاوى فصاعدا . وأخذ الناس يستعملونه فى الأدب أيضا ، فى إمبراطورية البطالمة المتأغرقة « Hellenistic » ، التى حكمت مصر منذ وفاة الإسكندر إلى الفتح الرومانى ، مع إدخالهم فى الوقت نفسه صورة مجددة من اللغة . وقد عاشت قصص قصيرة

فى نسخ مدونة فى تلك الحقبة وحدها ، وترعرع أدب ديموتيقى ممتد يعتبر من مميزات المرحلة النهائية فى الترقى الثقافى لمصر الوثنية ، إلى جوار الأدب الإغريقى للأقلية الحاكمة المتأغرقة . وأثمر تحول المصريين إلى المسيحية وازدياد نفوذ الأدب والتفكير الإغريقيين المطرد ، فى القرون الأولى من الميلاد ، وجها جديدا من اللغة ، هو القبطية ، التى حلت محل الديموتيقية فى القرن الخامس الميلادى وصارت اللغة الثقافية الوطنية لمصر المسيحية فى ظل الحكم الرومانى والحكم البيزنطى الذى تبعه . أما الأدب الإغريقى الغنى والمتنوع الذى ظهر فى مصر فى عهد السيادة الإغريقية فقد بقى نباتا أجنبيا فى أساسه ، ومقصورا على عنصر محدد فى قليل من المدن الكبيرة ولا يعنينا هنا . وقد نلاحظ عابرين أنه ضم واحدة من أشهر القصص جميعا ، هى « رواية الإسكندر » ، التى دونت بالإغريقية أولا فى مصر فى القرن الثانى الميلادى ، ثم ترجمت أو حورت فى لغات لا عدد لها . وأغلب أدب اللغة القبطية أدب كنسى ، يقوم غالبا على ترجمة نصوص الكتاب المقدس والكنيسة ، أما الأجزاء الأصلية منه فمواعظ ، وسير قديسين وكرامات لهم وما أشبه ذلك . وجدير بالملاحظة وضوح كثير من العناصر المصرية الأصيلة حتى فى هذا الأدب ، وهو وليد تطاحن ثقافتين أجنبيتين على مصر — المسيحية والهلينية . ويميز القديسون الأقباط الذين يزورون الجنة والنار ويحدثون المومياوات فى القبور المرحلة

الوسطى بين الأمير خعمواست فى البردى القبطى والسحرة والأبطال فى « ألف ليلة وليلة » .

وجلب الغزو العربى فى مستهل القرن السابع الميلادى لغة ، ودينا ، وثقافة جديدة ، إلى مصر مرة أخرى . وانتزع الغزاة المسلمون الآتون من بلاد العرب البلاد من البيزنطيين ، فى مدة قصيرة استغرقت عامين ، وصارت مصر إحدى ولايات الخلافة الإسلامية ، يحكمها حاكم يقيم فى المسلحة العربية المشيدة حديثاً : الفسطاط ، القريبة من موقع القاهرة الحالى . ولم يؤثر النظام الجديد فى البداية إلا فى سطح الحياة المصرية . واستمرت الإدارة المدنية البيزنطية القديمة فى أعمالها ، تجبى الضرائب القديمة بالطريقة القديمة ، وتدفعها للسادة الجدد . ولكن أخذت تغيرات بعيدة المدى تحدث تدريجيا . وقد مزق خلق امبراطورية إسلامية عسكرية جديدة فى الشرق الأدنى ، فى حرب مستمرة مع بيزنطة والغرب المسيحى ، مزق لعدة قرون وحدة حوض البحر الأبيض المتوسط ، التى أوجدها وحافظ عليها السلم الطويل الأجل الذى استتب فى العهد الرومانى ، واقترب بمصر تدريجيا من أن تبحث عن صلاتها فى الأراضى الواقعة وراء حدودها الشرقية ، واستلهام العروبة والإسلام بدلا من بلاد الإغريق وروما والمسيحية ؛ وتم ذلك بتقطيع الصلات الاقتصادية والثقافية بينها وبين العالم الغربى . وفى القرن الثانى من العهد الإسلامى ، حلت إدارة عربية ، تستخدم

العربية لغة لهـا وتطبق مبادئ الحكومة الإسلامية ، محل تلك الموروثة عن البيزنطيين ، وكانت العربية تتقـدم تقدما مطرداً باعتبارها لغة للحكومة ، والتجارة ، والمجتمع ، والثقافة ، وساعد الانتشار السريع للإسلام بين المصريين ، الذين كانوا من قبل فى عزلة عن الغرب لانتمائهم إلى كنيسة قبطية منفصلة ، انتشار العربية كما ساعدها أيضاً استيطان الجماهير من القبائل العربية المهاجرة من بلاد العرب فى مصر . وفى القرن العاشر الميلادى كانت العربية اللغة الرئيسية فى مصر ، بل كان هؤلاء المصريون الذين بقوا مخلصين لدينهم القديم يزدادون استخداما للعربية تدريجيا بدلا من اللغة القبطية التى كانت فى سبيلها إلى الموت . وكانت مصر أغنى وأرقى من أن تبقى ولاية خاضعة للخلفاء الشرقيين مدة طويلة . فقامت فى النصف الأخير من القرن التاسع إمارة إسلامية ذات استقلال ذاتى ، وبقيت مصر مركزا مستقلا للسلطة الإسلامية ، إلى أن ابتلعتها الإمبراطورية العثمانية فى ١٥١٧ ، اللهم إلا فى فترات قصيرة قليلة . وربما كانت أحسن الحقب فى تاريخ مصر الوسيط حقبة الخلفاء الفاطميين الشيعيين ، الذين حكموا امبراطورية واسعة عاصمتها مدينة القاهرة المنشأة حديثاً ، ونافسوا خلفاء بغداد العباسيين فى زعامة العالم الإسلامى . ولكن هذا المجتمع فسد من داخله ، فوقعت مصر منذ القرن الثانى عشر فصاعدا تحت حكم المماليك الأكراد والترك . ووضعت البلاد قدمها على منحدر طويل من

التدهور الاجتماعي والثقافى ، بحلول النظام الإقطاعى العسكرى القائم على زراعة العبيد محل الاقتصاد التجارى الحر فى العصور الوسيطة . وزاد من حدة هذا التدهور تحول طرق التجارة التى تربط بين الشرق والغرب من الشرق الأدنى إلى البحر الطليق ، وما تبع ذلك من كساد الحياة الاقتصادية . وسحق الفتح العثمانى فى ١٥١٧ المركز السياسى المصرى المستقل ، وفرض باشا عثمانيا على رأس النظام الإقطاعى المملوكى . وعلى الرغم من نجاح بعض الحكام الطموحين أو الموهوبين مرات فى استعادة قسط من الاستقلال الذاتى السياسى ، استمر الانحطاط فى الحياة الاقتصادية والثقافية بدون انقطاع إلى أن جعل غزو جيش نابليون الشرق يواجه ، للمرة الأولى منذ الحروب الصليبية ، التحدى المسلح لحضارة الغرب العسكرية المتوسعة .

وكان النفوذ الثقافى السائد فى مصر ، فى الحقبة الطويلة بين وصول العرب ووصول الفرنسيين ، عربياً وإسلامياً . وأتت دوافعه الموجهة من مكة والمدينة ، ودمشق وبغداد — إلى أن صارت القاهرة أيضاً ، فى ظل الفاطميين ، مركزا للثقافة العربية واكتسبت تفوقاً فى العالم المتكلم بالعربية احتفظت به منذ ذلك الحين . ولكن هذه المدنية الإسلامية العربية لم يأت بها الغزاة ناضجة من القفار العربية ، بل نمت فى القرون الأولى من الحكم العربى ، ضامة ومعيدة توجيه كثير من مجارى الثقافة النابعة من

مصادر قديمة — الفلسفة والعلم من بلاد الإغريق ؛ والنبوة ، والوحى ، وعلم الكلام من اليهودية والمسيحية ؛ ونظرية الحكومة وممارستها من فارس وبيزنطة ؛ والفنون والصناعات ، والمجتمع والمنظمات ، من المدنيات القديمة فى مصر ، والشام ، والجزيرة . وهذه المشاركة من الثقافات السابقة أقل ما تكون وضوحا فى النثر الفنى والشعر . فلم يعرف العرب شيئاً عن هومير ، وهيرودوت وكتاب الدراما من الإغريق ، على الرغم من حسن معرفتهم بأرسطو ، وجالينوس ، وبطليموس ؛ وتبحرهم فى العلم بهم ؛ وآثروا طويلا ، حتى فى المراكز المتحضرة والعالمية من الامبراطورية المفتوحة ، أن يستمدوا تقاليدهم الأدبية من بلاد العرب الوثنية ، وأن يلتزموا كثيراً من موضوعات الكتابة وتقاليدها الفنية التى غلبت عليها فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام . ولكن بعض التغيرات كان لا يمكن تجنبه ، وتطورت الذخيرة القديمة على مر الأيام بواسطة حاجات مجتمع متوسع ومتقدم ، وحورتها بعض التحوير عناصر مشتقة من الماضى الشخصى لمن تعرب من غير العرب الذين كونوا قسطاً دائم الازدياد بين مبتكرى الأدب العربى . وقام المصريون ، بين هؤلاء ، بنصيب هام ، وأخذوا يصبغون الثقافة العربية ، عندما ثبتت جذورها فى التربة المصرية ، بصبغة مصرية واضحة . وأغنوها بالمصرى من الأدب الشعبى والمأثورات . وجلوا فيها أحوال الحياة والمجتمع المصريين .

وكانت مشاركة المصريين فى فن القصة من أشهر ما قدموه للذخيرة العربية .

وكانت المأثورات العربية الوطنية فقيرة فى الأدب القصصى . وعلى الرغم من تفوقهم فى الأقصوصة أو النادرة ، لم يتجاوزوها إلا قليلا . فقد أنتجت مشقة الحياة فى الصحراء العربية القاسية شعباً ذا واقعية مفرطة وخيال محدود ، لا يقتنى غير قليل من الأساطير البسيطة . وبغض إليهم ظهور الإسلام استعارة الأساطير والخرافات من الأمم الأخرى ، ومعظمها متصل بآلهة وثنية ، وقيد الفنون الجميلة ومنع أية إمكانية أخرى لاستلهام الأدب القصصى ، بحظره تصوير الإنسان ورسمه . بل إن روايات الحب والحرب البدوية ، وهما الموضوعان الحبيبان إلى القلب العربى ، لم تكمل تطورها الأدبى الكامل فى القصة ، بمقارنتها بالشعر ، إلا عندما انتقلت إلى الشعوب الأخرى ، مع اللغة العربية . وأول قصص حقيقية فى العربية وصلت إلينا ، باستثناء الفقرات القصصية فى القرآن ، هى الخرافات الحيوانية المعروفة باسم « كليلة ودمنة » والتى ترجمها فى مطلع القرن الثانى الهجرى ابن المقفع الفارسى المسلم ، من نسخة بهلوية مأخوذة عن أصل هندى . وقد لقيت هذه القصص ترحيباً متزايداً فى دوائر البلاط ، فتبعها قصص أخرى ومجموعات من مصادر مشابهة . وفى مصر أيضاً ، رجعوا إلى مصادر الماضى السابق على الإسلام . فعلى الرغم من ضياع التاريخ الحقيق

لمصر القديمة ونسيانه منذ أمد طويل ، لم تخفق الآثار الكبيرة التى لا تزال قائمة من الماضى المجيد فى إثارة الاهتمام وحب الاستطلاع .

وأخذ العرب المصريون من المؤرخين والمؤلفين يمتعون قراءهم بحلقات من الحكايات الغريبة وقصص العجائب عن ماض أسطورى ، ولعلهم استمدوها من المأثورات والأدب القبطيين .

وسرعان ما عرض التراث الإسلامى الحديث بنفس الطريقة ، فزودتهم الأحداث فى سير رجالات الإسلام والأبطال الخرافيين من جاهلى بلاد العرب بالمادة لإتمام تطور تدريجى من الأقصوصة إلى القصة . ويلاحظ هذا التطور بصفة خاصة فى مصر ، حيث أثمر حبهم القديم والواسع الانتشار للقصة الجيدة كثيراً من مجموعات الأقاصيص والحكايات التى من الواضح أن المراد بها توضيح بعض الآداب الخلقية أو الدينية . ومع انتشار اللغة العربية والتراث العربى القديم بين الجماهير ، ظهر أدب واسع شبيه بالشعبى ، حيك فيه تاريخ بلاد العرب والإسلام وخرافاتهما فى روايات متصلة يتعاقب فيها النثر والشعر ، وتلائم الإنشاد العام . وربما كان أحسن هذه القصص ، ومؤكد أنها أشهرها ، رواية عنتر ، وهى حكاية حب ، وحرب ، وشرف ، طويلة ومهلهلة البناء ، تروى المغامرات التى لا حصر لها ، والتى قام بها واحد من أشهر أبطال العرب القدماء .

وزودتهم هجرة بنى هلال من بلاد العرب إلى مصر ومن مصر إلى شمال إفريقية فى القرن الحادى عشر بموضوع رواية أخرى

واسعة الانتشار ، على حين صيغت سيرة بيبرس ، سلطان مصر المملوكى الذى هزم الصليبين والمغول فى القرن الثالث عشر ، فى رواية بطولة . أما المجموعة المشهورة « ألف ليلة وليلة » فذات صبغة مخالفة . فهى من أصل فارسى وربما هندى ، وترجمت إلى العربية فى زمن مبكر ، وأضيف إليها كثير من الحكايات الجديدة التى ولدت فى الإسلام . وقد توصل نولدكه Nöldeke ، واسترب Ostrup ، ومكدنلد Macdonald ، وغيرهم إلى أن كثيراً من هذه الإضافات مصرى الأصل ، ويعكس فى أمانة الوجوه المختلفة من الذوق المصرى . ويوجد ، إلى جانب عدد من الحكايات عن الفروسية العربية والحروب ، كثير ذو طابع أكثر مدنية ، يصف حياة التجار والصناع فى المدن المصرية ، فى واقعية وقوة عجيبين يدلان على تحضر مدنى ناضج . ومن هذا اللون حكايات المحتالين ، وقصص الاحتيال الأصلية التى يقوم بها الشطار واللصوص المدنيون ، وتحتوى عادة على انعكاسات ساخرة من أمانة رجال الشرطة وكفاءتهم . وقد حظيت الحكايات من هذا الصنف منذ أمد طويل بحب خاص فى مصر ، وتمتد أمثلتها من الخرافة المصرية المسلية التى نشرها هيرودوت إلى الأقاصيص والحكايات الشعبية المعاصرة التى لا حصر لها . وشاع فى مصر المملوكية والعثمانية كثير من مجموعات المغامرات التى من هذا الطابع ، المعزو بعضها إلى أبطال « ألف ليلة وليلة » .

وإضافة مصرية واضحة أخرى إلى « ألف ليلة وليلة » وغيرها من المجموعات العربية هى الحكاية الخيالية . فمنذ أقدم العصور ، عندما أظهر الهمج النيوليتيون (المنتسبون إلى العصر الحجرى الأخير) فى وادى النيل عن طريق عنايتهم بتشييد مقابرهم اهتمامهم المتزايد بحياة وراء هذه الحياة ، وأحكم كهنوت قوى قوة غير معتادة قبضته على أذهان الناس وأموالهم بتوجيه قدرته المتباهية إلى الإشراف على قضاة العالم غير المرئى وأحكامه ، منذ ذلك الحين أولع المصريون بالعجيب وغير الطبيعى ، وبرعوا فى حكايات العجائب والسحر . فأضافوا إلى النبع العربى المشترك ما لا حصر له من قصص السحرة والمردة ، وقصص السحر والكائنات غير الطبيعية . وليس المصريون بوحيدين بين شعوب الشرق الأدنى فى ميلهم لغير الطبيعى ، وإن كانوا أكثر ميلا . إذ يتحدث الشعراء العرب الجاهليون أحيانا عن الغيلان والكائنات الأخرى ، بينما يزدحم عالم الأساطير الفارسية بالديو والبيرى ازدحامه بالكائنات البشرية . وقد لاحظ استرب فرقا هاما بين الأرواح المصرية وغيرها . فبينما الغيلان العربية ليست أكثر من تشخيص لعزلة الصحراء الغامضة بالليل ، والديو والبيرى الفارسية — التى ألبستها الروايات العربية رداء إسلاميا وجعلتها العفاريت والجن — شخصيات عاملة ذات دور مستقل وشخصية خاصة ، تساعد البطل أو تعارضه وفقا للمزاج والهوى ، نجد

أرواح القصة المصرية فى الغالب عبيدا سلبيين لطلسم ، أو رصد أو مكان ، مرغمين على إطاعة أوامر سيد هذا الطلسم ، وتحقيق أغراضه ، وعاجزين عن أية إرادة أو عمل غير القيام بمهامهم المقدرة عليهم . فالأمر كما تقول إحدى القصص : « مصر أرض السحرة ، وبحرها مملوء بالأرواح والشياطين ، التى تساعدهم فى شئونهم » .

كل هذه الروايات والحكايات الشبيهة بالشعبية تؤلف مرحلة وسطى بين الأدب التقليدى الرسمى المدون بالعربية الفصحى والأدب الشعبى للفلاحين الأميين . وتتراوح فى اللغة من العربية الفصحى المحضة تقريبا إلى ما يقارب العامية غير المدونة للجماهير ، وفى الصورة من القصة القصيرة المعتنى ببنائها إلى الروايات الشائعة التى يلقيها منشدو المقاهى . ودونها فى المرتبة الأدبية الحكاية الشعبية الحقة — القصة الشعبية فى القرى المصرية ، المنقولة شفاها ، والقليلة التأثر بمجارى الثقافة الأجنبية التى دخلت وادى النيل على مر القرون . ولم تدون هذه القصص فى صورتها الأصلية إلا فى السنوات الخمسين الأخيرة أو نحوها ، واعتمد تدوينها فى الغالب على جهود المستشرقين الأوربيين الذين قيدوها بخط صوتى كما تروى باللهجة الوطنية للقاص . وعلى الرغم من حداثتها بالمعنى الرسمى ، فإن كثيرا منها موغل فى القدم ولا شك ، ويضم عناصر من الأدب الشعبى ترجع إلى العصور الفرعونية . ولا يمكن أن تكون غير

ذلك . فقد كان الاختلاف الذى طرأ على حياة الفلاح المصرى ، وهو الخالق المطلق للحياة والفن المصريين ، قليلا على مر العصور وتشكل أسلوبه فى وصف الحياة أو الهروب منها خلال آلاف السنين فى قوالب حسنة التحديد اتخذت طريقها إلى آداب أهل المدن والمتعلمين الأكثر رسمية . فحكايات الطاهى الأمى والمنشد العام والعالم الدينى المتبسط غنية بالخصائص نفسها من الملاحظة الدقيقة المرتبطة بالخيال الواسع ، والسذاجة المختلطة بالمهارة .

وقد انعكس الانحطاط المطرد للمجتمع المصرى فى ظل الحكم العثمانى فى الأدب حتما ، ولم تظهر إلا إعادات جديدة أو تحويرات للموضوعات القديمة (باستثناء القليل) إلى أن جلب الغزو الغربى فى الحال مجموعة من المشاكل الجديدة ومن الطرز الجديدة لعلاجها الأدبى .

وكان للاحتلال النابليونى القصير الأجل فى ١٧٩٨ — ١٨٠١ تأثير سريع صغير فى مصر . ولكنه كان الدليل الأول الذى لا يمكن الخطأ فيه على الاهتمام الأوربى المتزايد بهذه البلاد ، وابتدأت الأحداث التى جعلت مصر فى مقدمة الشئون الدولية باعتبارها ميدانا تتصارع فيه ألوان الاستعمار المختلفة وحلقة جوهرية فى طرق الاتصال التجارى والعسكرى . وأدت الأهمية الجديدة للبلاد ، وما قام به جماعة العلماء المشهورين الذين رافقوا نابليون فى مغامرته المصرية ، إلى الاهتمام المتزايد بمصر بين الشعوب

الغربية ، وساعد على تمهيد الطريق لتتمثل الأجيال الحديثة من المصريين الثقافة الغربية . وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بعد فترة قصيرة وأليمة استعاد فيها العثمانيون السلطة ، وقعت مصر تحت حكم باشا طموح وموهوب ، هو محمد على ، مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية[1] ، وإذ حرر نفسه سريعا من كل سلطة سوى السيادة العثمانية الاسمية ، استهل برنامجا بعيد المدى من إعادة التنظيم والإصلاح ، اقتضى خلق جيش جديد مدرب ومسلح على النظم الغربية ، وإصلاح الزراعة ، وتشييد المصانع، وبناء المدارس الفنية والمستشفيات ، وإرسال البعوث من الطلبة ، للمرة الأولى ، إلى أوربا . وعلى الرغم من كون هذه الإصلاحات عسكرية فى مقصدها الأول ، تجاوزت آثارها الحدود العسكرية . وبعد اعتزال محمد على فى ١٨٤٨ ، ضاع كثير من أعماله ، ولكن أسلافه وخلفاءه ، الذين اعترف الأتراك بهم حينئذ حكاما وراثيين لولاية ذات استقلال ذاتى تقدم الجزية للسلطان ، عاودوا برنامج الإصلاح الذى ابتكره ، ولكن على نطاق أصغر وفى خطا أبطأ . وكان افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩ والتطور السريع للشئون الأوربية التجارية والمالية فى مصر دافعا عظيما لانتشار الصناعة والأفكار الأوربية ، وأسرع الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢

---

(١) نشر الكتاب عام ١٩٤٨ ، وقد أسقطت هذه الأسرة عام ١٩٥٢ ، على يد الثورة المصرية الحديثة ــ المترجم .

بذلك الاتصال كثيرا بزيادته مجال النشاط الأوربى زيادة فسيحة ، وإثارته قيام حكومة وطنية رأى بعض قادتها فى اتخاذ المناهج الغربية أمرا جوهريا لا يستغنى عنه للنجاح فى متابعة الأمانى الوطنية .

ومن أعلام النهضة الثقافية رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١—٧٣)، وهو شيخ من الأزهر ، أقام فى باريس من ١٨٢٨ إلى ١٨٣٢ إماما دينيا لبعثة الطلبة . ويبدو أنه كان أكثر نجاحا فى تمثل الثقافة الفرنسية من أى طالب من البعثة ، وقام بنصيب هام فى تنظيم محمد على للمدارس وفى برنامجه لترجمة الآثار الصناعية ، والعلمية ، وغيرها ، إلى العربية . وقد نشرت ترجمته العربية لقصة « تليماك » لفنلون Fénelon فى ١٨٦٧ ، ويشهد لشيوعها ظهور ما لا يقل عن ثلاث ترجمات عربية أخرى عام ١٩١٢ . وتلتها ترجمات أخرى ، بأقلام مختلفة ، فى أعداد متزايدة . فظهرت « الكونت دى مونت كرستو » فى رداء عربى فى القاهرة فى ١٨٧١ . وفى العام التالى ، نشر عثمان جلال ، أحسن تلاميذ رفاعة ، أولى الترجمات العربية الكثيرة لقصة « بول وفرجينى » ، محورة لتلائم الذوق المحلى . وتلتها مجموعة من الروايات لفكتور هيجو Victor Hugo ، وجول فيرن Jules Verne ، ويوجين سو Eugène Sue ، وغيرهم ، على حين ترجمت عدة مختارات وقصص قصيرة ونشرت فى الصحافة ، وفى المجموعات ، وفى عدد متزايد من الدوريات المخصصة لهذا

الطابع من المواد خاصة . واضطلع بنصيب هام فى إذاعة الثقافة الغربية فى مصر اللاجئون السوريون من الحكم العثمانى ، الذين أغراهم بالالتجاء إلى مصر التى يحتلها الإنجليز غناها المادى وحريتها النسبية فى التعبير . وكان كثير منهم مسيحيين ، تلقوا علومهم فى مدارس الإرساليات الفرنسية والأمريكية ، الأقل خضوعا للتأثيرات المحافظة من الثقافة القديمة فى تقبل الأفكار الغربية . واستطاعوا ، لمركزهم المتوسط بين العرب والعوالم الأوربية ، أن يقوموا بدور الهداة والناصحين لجيل حديث من المفكرين المصريين الداخلين إلى عالم الأفكار الغربية . وأتاحت زيادة التعليم ، وتطور الطباعة ونمو صحافة دورية متسعة الفرص المادية الفرصة لتوسع سريع ، أولا فى ترجمة النصوص الأوربية وتحويرها ، ثم أخيراً فى العمل المبتكر ، على حين وسع إدخال اللغة الإنجليزية فى المدارس المصرية مصادر الإلهام الأوربى ونوعها . وكان الذوق الذى سيطر على اختيار النصوص للترجمة فى بادىء الأمر شاذاً . فقد وجدت قصص العجائب عند جول فيرن ومغامرات أرسين لوبين وشرلوك هولمز ، كما كنا نتوقع ، ترحيبا حاضراً بين شعب « ألف ليلة وليلة » . ولكن لم يهمل الأدب الأكثر جدية ، وقد وجد موبسان Maupassant ، ودوديه Daudet ، وديكنز Dickens ، إن اقتصرنا على ثلاثة أسماء ، مترجمين وتلاميذ فى مصر .

وقام بالمحاولات الأولى فى القصة الأصلية السوريون ، وأشهرهم

جرجى زيدان (١٨٦١ — ١٩١٤) ، الذى ألف عشرين رواية تاريخية عربية غربية على طراز ديماس Dumas . وسرعان ما نافس المصريون أساتذتهم السوريين وتفوقوا عليهم . وقد حاول المصريون المحدثون الأولون من الروائيين وكتاب القصة القصيرة ، وهم أكثر محافظة من السوريين ، أن يوفقوا بين المادة الحديثة والصور الأدبية العربية التقليدية ، وخاصة المقامات . وكانت هذه فى الأدب التقليدى ، مجموعة من الأحداث المروية رواية مهلهلة ، والموصوفة بالنثر المسجوع ، وغير الجديرة باسم القصة القصيرة ، تستخدم أوتادا يعلق عليها المؤلف براعته اللغوية وقدرته الأسلوبية . وقد تعتبر « مقامات » محمد إبراهيم المويلحى (١٨٦٨ — ١٩٣٠) المبسطة والمتصلة بالأحوال الحديثة ، والمتخذة أداة للتعليق والنقد الاجتماعيين ، الخطوات الأولى نحو الرواية الحديثة . وكان مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦ — ١٩٢٤) من زعماء النهضة الأدبية المصرية . وعلى الرغم من اشتهاره شاعراً وكاتب مقالات ممتازا ، حور أيضا كثيراً من القصص القصيرة من الطرز الفرنسية ، وكتب عددا مبتكرا ، معظمه عاطفى وتعليمى . وفى الأعوام الأولى من القرن الحالى سار جماعة من كتاب القصة القصيرة ، على رأسهم محمد تيمور (١٨٩٢ — ١٩٢١) فى طريق جديد فى ملاحظة الحياة المعاصرة ووصفها ، ونقلوا القصة المصرية نقلة بعيدة وراء الجهود المتعثرة التى قام بها المجددون الأولون المترددون بعض الشىء .

ووجد كثير من العوائق فى سبيل تطور الأدب الحديث فى مصر . إذ كانت القوى الرجعية لا تزال قوية ، بل إنهم تركوا أثرهم ، حيث فقدوا قبضتهم الفكرية على ذهن المؤلف ، فيما حصل عليه من تدريب وتثقيف فى أعوامه الأولى المشكلة لشخصيته ، فغادروه غير راض عن القديم ولكن غير أهل لتقبل الجديد . وكان الشعب القارئ لايزال للأسف صغيراً ، وإن كان متزايدا ، أضف إلى ذلك أن الذين تطورت أذواقهم تطورا يؤهلهم لوضع مقياس فى القصة الحديثة آثروا قراءة الكتب الفرنسية والإنجليزية ، وأهملوا الثمرات الوطنية . وجعل استمرارهم فى استخدامهم العربية الفصحى اللغة الأدبية الوحيدة لهم الحوار الواقعى مستحيلا ، على حين عورض استعمال العامية لمرتبتها المنحطة أولا ، ثم لتهديدها الخطير لوحدة الشعوب المتكلمة بالعربية .

ويسر الانتهاء الرسمى للسيادة العثمانية فى ١٩١٤ ، والحركة التى توجت بتحقق الاستقلال السياسى تحققا جزئيا فى ١٩٢٢ ، والزيادة الهائلة فى ثروة مصر المادية فى سنى الحرب ، يسر كل ذلك لاتساع الجمهور القارئ اتساعا كبيرا ولتطور فى التجديد موافق له . ولم يحاول المجددون المصريون ، بخلاف بعض زملائهم فى الأقطار الأخرى ، طرح التراث المأثور طرحا تاما ، بل خلطوا العالمين فى ثقافة مجددة ، متغربة westeruised ، ولكنها لا زالت فى جوهرها مصرية . ولم يكمل هذا الخلط بعد . فإن ألوان التناقض

المستقرة تحته وأصناف الصراع المتولدة عنه أغنت الأدب المصرى الحديث فى الحال بكثير من الموضوعات ، وأفقرته إذ حرمته من مقياس للذوق مقبول ومجمع عليه . ولكن العمل قد سار شوطا بعيدا كافيا لإيجاد أدب قصصى واسع الانتشار وجدير بالملاحظة غالبا ، أدب معاصر فى موضوعاته وفى صناعته إلى مدى أقل ، ويقترب أحيانا من المقاييس الغربية فى البناء وتصوير الشخصيات . وكان تقدم القصة القصيرة فى هذا الجانب أعظم كثيرا من تقدم الرواية . ومؤكد أن أنجح كتاب القصة القصيرة فى مصر وفى العربية اليوم هو محمود تيمور الذى تكشف مجلدات حكاياته الكثيرة عن زيادة مطردة فى المهارة فى الصنعة واستحكام جذورها فى التربة المصرية .

وإنها لرحلة طويلة من الكتبة المجهولين فى المملكة الوسطى إلى الروائيين المتغربين فى قاهرة اليوم . ولكن المرء يستطيع أن يلمح نمطا متكررا فى التغيرات الكثيرة التى طرأت على المادة ، والفكرة ، واللون ، والأسلوب . ولعل أبرز سمة للمصرى فى جميع عصوره حيوية خياله وتنوعه . فالبحار الذى تحطمت سفينته وسكن جزيرة منعزلة تعيش فيها الوحوش والآلهة ، والقديس القبطى الذى يحادث الموتى فى العالم السفلى ، والبطل المسلم الذى ذهب بالمحتالة وفق إرادته ، والبواب القاهرى الذى رأى فى بائع الفول السودانى واللب الوضيع وليا ذا كرامات ، كلهم من وحى

نفس الخيال الثرى الطليق ، نفس الرغبة فى الهروب من المنظر البنى الرتيب لوادى النيل والعمل المتواصل الذى يتطلبه . ولعل فكرة الهروب نفسها هى التى توجد وراء خاصة ثانية للقصة المصرية — هى حب قصص اللصوص والمحتالين . فمصر بلاد منبسطة عارية ، من اليسير التحكم فيها ، وتخضعها مطالب الرى فى جميع عصورها تقريبا لحكم حكومة مركزية واحدة . هذه البلاد التى لا جبال بها ولا غابات لم تعرف سبارتاكوس Spartacus ولاروبن هود ، ولذلك وجد سخط الجماهير ، العاجزة عن المبالغة فى أمجاد أبطال الثورة الشعبية ، على السلطة ذات الوقع الثقيل عليهم ، وجد مخرجا يعوضه عن ذلك فى حكايات اللصوص والشطار ، ورجال المدن الوضعاء الذين تحدوا الأغنياء والأقوياء وغلبوهم بين تهليل المحرومين ، بجمعهم بين الشجاعة والحيلة . وقد عاون هاتين الفكرتين ، الخيالية واللصوصية ، فى تطورهما كثرة الرحلات الخارجية . فقد اضطرت مصر ، لنقص الخشب والمعادن بها ، منذ ابتداء الحياة الاجتماعية المنظمة ، إلى إرسال التجار ، والوفود ، وأحيانا الجنود إلى البلاد الأجنبية بحثا عما تحتاج إليه . والمسافر العائد مصدر دائم لحكايات العجائب والخيال . ويميل بطل قصة اللصوصية ، بحكم طبيعة هوايته نفسها ، إلى التغيير المتكرر فى مجال عمله .

وليست الخاصة الخيالية الخاصة الوحيدة للقصة المصرية .

فهذا هو وينامون رحالة المملكة الحديثة يعطينا وصفا دقيقا وحقيقيا للأقطار والشعوب الذين مر بهم ، على حين يمنحنا أحمد ابن يوسف من العصور الوسيطة بمجموعة من صور الحياة اليومية على جانب غير عادى من القوة والصدق . بل توصف المخلوقات غير الطبيعية فى الخرافة الريفية بأسلوب جاف ، تقريرى ، يجعلها تبدو طبيعية كالأبطال البشريين أنفسهم تقريبا ، ويبين أن واقعية بعض المجددين ليست مستوردة كلها من أوربا . ومع ذلك فالخاصة الرئيسية التى امتاز بها الأدب المصرى هى غنى الخيال الذى لا حدود له ، وبفضل هذه الخاصة فى أدب مصر ، ودينها ، وآثارها ، تصورها العبريون ، والإغريق ، والعرب ، والأوربيون الغربيون أرض السحر والعجائب ، « أرض السحرة » الخرافية .

برنارد لويس



مصر القديمة

المملكة الوسطى

جزيرة الثعبان

لا يعرف من هذه القصة غير مخطوط واحد ؛ وهو فى لينجراد ، ويرجع تاريخه إلى ما يقرب من سنة ١٩٠٠ ق . م . وربما كانت القصة نفسها أقدم من ذلك قليلا . وبداية المخطوط ضائعة ، ومعها خبر كان يصف ، فيما يصف ، الأحوال التى أدت بأمير إلى أن يشعر بقلق شديد بصدد مقابلة الملك التى كان عازما عليها . وهذه الأحوال غير معروفة منا الآن تماما . ويتألف مابقى من القصة من خطاب طويل يخاطب فيه تابع حاذق الأمير ، ويحاول فيه أن يسكن روع الأمير بشأن المقابلة الآتية بأن يقص عليه نحسا واجهه ولكنه خرج منه سعيدا ، وتلقى من فرعون تشريفا خاصا . ويبدو من مطلع حديثه أنه والأمير قد عادا إلى مصر بسفينة بعد رحلة طويلة على النيل فى النوبة . وتنتهى القصة بجواب غامض من الأمير ، يوحى بأن وصف التابع لتجاربه لم يسر عنه .

وقد عقدت عدة مشابهات بين هذه القصة ومغامرات السندباد البحرى ، ووصف زيارة أوديسيوس لجزيرة Phaeacians (الأودسا ، الكتاب الخامس) .

---

(١) ذهب الأستاذ سليم حسن الى أن القصة « وصلت الينا كاملة غيرمنقوصة ... بدايتها ليست مهشمة أو ممحوة » ورجح أن سبب القصة أن الملك أرسل أميرا من أمراء الفنتين الى أرض الاله (بلاد الصومال) ليحضر بعض النفائس ، فلم يوفق فىمهمته فرجع خائبا ، حزينا يتوقع شرا مستطيرا عند مقابلته لفرعون. ورأى أن « ليس من البعيد أن تكون هذه القصة واحدة من سلسلة قصصمتصلة الحلقات لم تصل الينا ، فكان مع الأمير أتباع كثيرون كل واحد منهم يقص قصة فيها تخفيف من آلام الأمير وتسرية عن قلبه ... على مثال قصة الملك خوفو والسحرة فىالعهد القديم ، وقصة ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة فىالعصرالحديث » (الأدب المصرى القديم ٤٧) — المترجم .

. . . وقال التابع[1] الحاذق :

« أنباء حسنة ، أيها الأمير ! انظر ، لقد وصلنا إلى وطننا ! وقد أخذت المطرقة فى اليد ، ودقت أوتاد المرساة ، وألقى الحبل على الأرض . وأثنوا على الله ، وشكروا له ؛ وعانق كل منهم الآخر . لقد عاد بحارتنا فى نظام حسن ؛ ولم يفقد أحد من حملتنا . لقد بلغنا النوبة السفلى ، ومررنا بالبجة[2] . انظر ، لقد عدنا فى سلام ، وبلغنا أرضنا .

« أصغ إلى ، أيها الأمير ، لست ثرثارا . اغتسل ، وصب الماء على أصابعك ، وأجب حين تخاطب ، وحادث الملك حاضر الذهن ؛ تجبه دون تردد . إن فم المرء ينقذه : وكلامه يرقق قلوب الناس نحوه . ولكن افعل كما تشاء ؛ فإن هذا الحديث معك يضجرك .

إذن ، سأقص عليك خبرا مماثلا وقع لى عندما ذهبت إلى إقليم مناجم الملك . لقد هبطت إلى البحر فى سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا[3] ، وفيها ١٢٠ ملاحا ، من أحسن ملاحى مصر ؛ سواء نظروا إلى السماء أو نظروا إلى الأرض ، فقلوبهم أقوى من قلوب الأسود . وكانوا يتنبئون بالعاصفة قبل مجيئها ، وبالزوبعة قبل هبوبها .

وعصفت عاصفة وما زلنا فى البحر قبل أن نستطيع الرسو على الأرض . وهبت الريح وزأرت ، مع أمواج ارتفاعها ثمانى أذرع[4] . فحملت من على سطح السفينة مع الصارى[5] . وغرقت

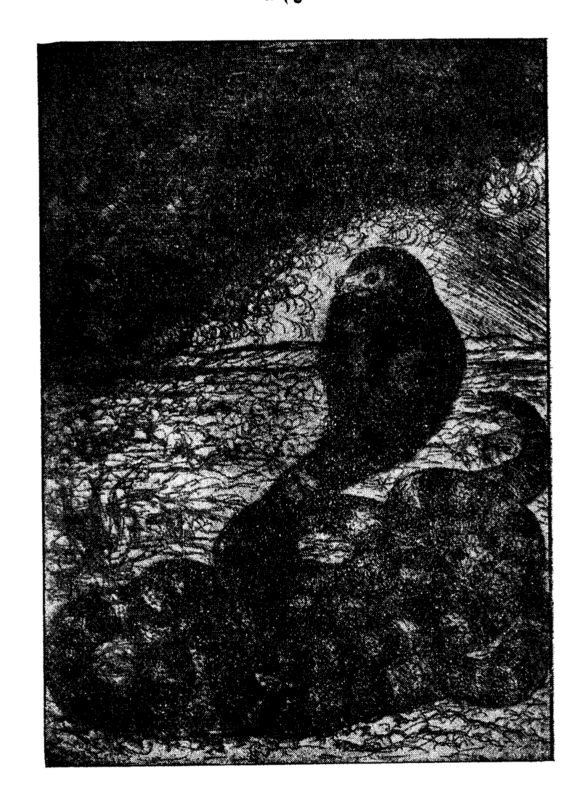
السفينة ، ولم يبق ممن كان فيها سواى . ثم لفظتنى موجة من البحر على جزيرة . فقضيت ثلاثة أيام وحيدا ، لا رفيق معى غير قلبى ، راقدا مستظلا بخشبة ، وملتصقا بالظل(٦) .

ثم نهضت على قدمى لأجد ما أستطيع وضعه فى فمى . فوجدت تينا وعنبا هناك ، وجميع ألوان الخضر الحسنة ؛ فكان فيها نوعان من الجميز ، وخيار كأنه مزروع . وكان فيها السمك والطيور كلاهما . فلا شىء مفقود فى تلك الجزيرة . فأكلت إلى أن شبعت . ثم طرحت الطعام جانبا ، لأننى كان معى كثير ، وأخذت زنادا ، وأشعلت نارا ، وأحرقت قربانا للآلهة .

عندئذ سمعت صوت رعد ، ظننت أنه موجة بحر : وتحطمت الأشجار ، وارتجفت الأرض . فلما كشفت عن وجهى رأيت ثعبانا قادما نحوى . وكان طوله ثلاثين ذراعا ، وطول لحيته ينيف على الذراعين(٧) . وكان جسمه مرصعا بالذهب ، وحاجباه من اللازورد الخالص ؛ وكان غاية فى العقل* .

وخاطبنى ، وأنا ملق على بطنى أمامه ، وقال لى : « ما أتى بك هنا ، أيها الصغير ما أتى بك هنا ، ما أتى بك هنا ؟ إن تلكأت فى إخبارى عما أتى بك إلى هذه الجزيرة ، فسأجعلك تجد نفسك رمادا

* يقول سليم حسن : يتصور القاص هذا الثعبان كأنه اله مصرى مصنوع من البرنز المذهب ومرصع بالألوان ، ويقصد باللحية لحية الاله المجدولة — ح .



محترقا ، وتصير إنسانا لا تستطاع رؤيته » . واستمر يحدثني ولكنني لم أسمعه ؛ وإنما كنت ملقى على بطني أمامه وفقدت وعيي .

ثم وضعني في فمه وحملني إلى جحره . ووضعني على الأرض دون أن يمسني بشيء ، وكنت سليما معافى ، لم يمزق مني شيئا . وحادثني ، وأنا على بطني أمامه ، وقال لي : « ما أتى بك ، ما أتى بك ، أيها الصغير ، ما أتى بك إلى هذه الجزيرة في البحر ، والتي يحيط بها البحر من الجانبين ؟ » .

حينئذ رددت عليه ، وذراعاي مثنيتان أمامه ، وقلت له : « لقد هبطت إلى إقليم المناجم ، في مهمة للملك ، في سفينة طولها ١٢٠ ذراعا ، وعرضها ٤٠ ذراعا ، كان فيها ١٢٠ ملاحا ، من أحسن ملاحي مصر ؛ سواء نظروا إلى السماء أو نظروا إلى الأرض ، فقلوبهم أقوى من قلوب الأسود . وكانوا يتنبئون بالعاصفة قبل أن تجيء ، وبالإعصار قبل أن يهب . وكان كل واحد منهم أقوى قلبا وأقدر يدا من رفيقه ؛ ولم يكن بينهم أحمق . ولكن العاصفة عصفت وما زلنا في البحر ، قبل أن نستطيع الرسو على الأرض . وهبت الريح وزأرت ، مع أمواج ارتفاعها ثماني أذرع ، فحملت من على سطح السفينة مع الصاري . وغرقت السفينة ، ولم يبق ممن كان فيها سواي ، وها أناذا في حضرتك . لقد أتت بي إلى هذه الجزيرة موجة من البحر » .

وقال لي : « لا تخف ، لا تخف ، أيها الصغير ، لا تحول

وجهك ؛ لقد وصلت إلى ؛ انظر ، لقد حفظك الله ليأتى بك إلى هذه الجزيرة لتسرنى . ولا شىء مفقود فيها ، فهى مفعمة بجميع الأشياء الطيبة .

انظر ، ستقضى شهرا وراء شهر على هذه الجزيرة إلى أن تكمل أربعة أشهر ، وستصل سفينة من الحاضرة[9] سيكون فيها ملاحون تعرفهم . وستذهب معهم إلى الحاضرة ، وستموت فى مدينتك .

ما أعظم فرحة من يروى ما قد جربه ، حينما تكون الأشياء الأليمة قد انقضت ! والآن سأقص عليك شيئا مماثلا وقع لى فى هذه الجزيرة . لقد كنت فيها مع أقاربى ، وكان أبنائى بينهم : وكان عددنا خمسة وسبعين ثعبانا ، أبنائى وأقاربى ، دون أن أذكر لك ابنة امرأة وضيعة جلبت إلى . . .[10] ثم هوى شهاب ، فاستحالوا نارا بسببه . واتفق أنى لم أكن معهم ؛ فاحترقوا ، ولم أكن بينهم . حينئذ مت من أجلهم[11] ، حينما وجدتهم كومة واحدة من الجثث .

ولكنك إن كنت على قسط كاف من الصبر ، فستضم إليك أبناءك ، وستقبل زوجتك ، وترى بيتك ، وهذا أفضل الأمور ؛ ستبلغ دارك الذى كنت فيه ، بين أقاربك » .

فانطرحت على بطنى ولمست الأرض أمامه (بجبينى) ، وقلت له : « سأصف قدرتك للملك ، وأعرفه عظمتك . وسأبعث إليك الذكى من العطور والروائح ، وبخور المعابد الذى يسر به كل إله ، وسأروى ما قد حدث ، واضعا نصب عينى ما قد رأيته من قدرته

(الملك) . وسيوجه لك الشكر فى العاصمة ، أمام مجلس البلاد برمتها . وسأنحر لك الثيران وأقدمها قربانا مشويا ، وأشق رقاب الأوز . وسأبعث لك السفن المحملة بجميع الروائع من مصر ، كما يجب أن يفعل لإله يحب الناس فى بلاد بعيدة لا يعرفها الناس » .

فضحك منى ، ومما قلت كأنما هو هراء فى رأيه ، وقال لى : « ليس لديك كثير من المر ولا تملكون إلا البخور* . ولكننى حاكم بنت(١٢) ، والمر ملك لى . أما ذلك العطر الذكى الذى ذكرت أنك جالبه فهو المحصول الرئيسى فى هذه الجزيرة . والواقع أنك عندما تغادر هذا الموضع ، لن تشــــاهد هذه الجزيرة أبداً ؛ إذ ستصير ماء » .

وأتت تلك السفينة ، كما تنبأ من قبل تماما . فذهبت وعلوت شجرة سامقة ، وعرفت من كانوا فى السفينة . فذهبت لأنبئه بالأمر ، ولكننى وجدت أنه قد عرفه . وقال لى : « وداعا ، وداعا ، أيها الصغير ، وهيا إلى دارك سالما ، لترى أبناءك . ولتجعل ذكرى فى مدينتك ؛ انظر ، ذلك كل ما أطلبه منك » .

فألقيت بنفسى على بطنى أمامه ، وذراعاى مثنيتان . فأعطانى حملا من المر ، والزيت العطرى ، والصموغ المتنوعة ، والروائح ، والكحل ، وذيول الزراف ، وقدرا عظيما من البخور ، وسن الفيل ،

---

* هذه العبارة تكملة من سليم حسن ، وهى عند ارمان : ولو أصبحت مالك البخور ، وتركها المترجم الانجليزى لغموضها .

وكلاب الصيد ، والقردة ، والنسانيس ، وسائر الأشياء الحسنة والثمينة . فحملتها على هذه السفينة . وعندما طرحت نفسى على بطنى لأشكره ، قال لى : « انظر ، ستبلغ الحاضرة فى شهرين ، وستضم إليك أبناءك وترتد شابا ثانية فى الحاضرة ، وتحنط (هناك) » .

فهبطت إلى الشاطىء ، قريبا من هذه السفينة ، ودعوت الجنود الذين كانوا فيها . وأثنيت على الشاطىء على رب هذه الجزيرة ، وأثنى عليه من كان فى السفينة .

وأبحرنا إلى الشمال إلى حاضرة الملك ، فبلغناها فى شهرين ، كما قال تماما . ثم دخلت إلى الملك وقدمت له هذه الهدايا التى أحضرتها معى من هذه الجزيرة . فشكرنى فى حضرة مجلس البلاد جميعها . ثم عينت تابعا وكوفئت بمئتى جارية .

انظر إلى ، بعد أن وصلت إلى الأرض ، وبعد أن شاهدت ما قد جربت . وأصغ إلى قولى . انظر ، إنه من الخير أن تصغى للناس » .

حينئذ قال له الأمير : « لا تلعبن دور الحكيم ، ياصاح . أيمنح المرء الماء للطائر الذى سيذبح فى صبيحة الغد ؟ » .

* * *

كتبت من البداية إلى النهاية كما وجدت مخطوطة . وكتبها الكاتب ذو الأصابع البارعة ، أمينو (أحياه الإله ، وأغناه ، وعافاه) بن أمينى .

١ ــ تابع للملك ؛ انظر نهاية القصة .
٢ ــ جزيرة صغيرة على حدود مصر الجنوبية (بالقرب من فيلة) .
٣ ــ قريب من ٢٠٦ أقدام فى ٧٠ قدما .
٤ ــ ١٤ قدما .
٥ ــ هذه العبارة تكملة عند سليم حسن ، وكان قد تركها المترجم الانجليزى لغموضها ، وهى عند ارمان : فقبضت على قطعة من الخشب .
٦ ــ خوف أن يرى ؟
٧ ــ ٥١١/٢ و ٣١/٢ قدما .
٨ ــ دليل الاحترام .
٩ ــ يريد المدينة التى فيها الملك وبلاطه ، وليس من الضرورى أن تكون عاصمة البلاد .
١٠ــ كلمة غامضة جدا .
١١ــ مبالغة تعبر عن شدة الحزن .
١٢ــ قطر بعيد فى الجنوب على البحر الأحمر ، وهو بالتقريب الصومال ، وكان عندئذ المصدر الرئيسى للمر وما أشبهه ــ ح : ويذهب سليم حسن الى احتمال أن تلك الكلمة لقب عام لمناطق انتاج البخور جنوبى البحر الأحمر ، وكانت تقع فى المنطقة التى تشمل بلاد اريتريا والصومال من جهة ، وشواطىء اليمن من جهة أخرى .

مغامرات سنوحى

إذا حكمنا على قصة سنوحى (ابن شجرة الجميز) بعدد المخطوطات (معظمها قطع صغيرة) على البردى ، أو قطع الحجر الجيرى ، أو قطع الأوانى ، التى وصلت إلينا منها ، عددناها من أحب النصوص الأدبية المصرية ويتراوح تاريخ هذه المخطوطات من ١٨٠٠ ق . م . تقريبا (بعد وقوع بعض الحوادث المروية فيها بقريب من ١٥٠ سنة) إلى ١١٠٠ ق . م . تقريبا . ولا شى منها كامل تماما ؛ وأكبر مخطوطتين منها ، وهما تكمل إحداهما الأخرى ، من أقدمها وأحسنها نصا .

وإلام تعتبر هذه القصة سجلا صحيحا يترجم فيه امرؤ حياته ؟ وإلام هى عمل من أعمال الخيال ؟ سؤالان كثيرا ما شغلا الدارسين . ولاشىء يوثق به بصددها ؛ والقصة كلها ، فيما عدا طولها ، تشبه كثيرا بعض النقوش على جدران المقابر التى ظن أن فى الإمكان أن مثلها كان أصل نصنا ، ويظهر الشبه خاصة فى مبدئها ومنتهاها . ويخبرنا سنوحى أن قبره أقيم فى « عاصمة » عصره — أى فى اللشت — على بعد أربعين ميلا تقريبا جنوبى القاهرة ؛ ولكن المنقبين الذين ارتادوا الموضع لم يكتشفوا مدفنه . ولم يذكره أحد من معاصريه . ولكن عدم وجود أى دليل قوى على وجوده ليس دليلا على أنه مجرد شخصية خرافية ، نظرا لتهدم المقابر ، وقلة المدونات ، وعدم ادعاء سنوحى أنه اضطلع بأى دور فى شئون الدولة فى مصر [1] .

أما الشواهد الداخلية على صحة القصة فقليلة أو معدومة . ومن الطبيعى أن الملكين والملكة الذين يظهرون فيها تاريخيون ؛ ولكن لا يعرف

شىء ، غير ما قاله سنوحى ، عن الملك الأسيوى ننشى بن آمو . والأماكن العشرة أو المنيفة عليها التى يذكرها خارج حدود مصر ، نجدها جميعا فى مصادر أخرى غير واحد — هو خنتكش(٣) . ولكن قيل : إنه لا يوجد شىء فى الجزء الآسيوى من القصة ، ومنه وصف حاصلات ياء ، لا يستطيع أن يصل إليه فكر مؤلف يلزم بيته ويعرف الأسماء والمواقع النسبية لعدد معين من الأماكن فى فلسطين وسورية على وجه التقريب .

وإذا التفتنا إلى محتوى القصة ، وجدنا أنه لن يخطىء قارىء فى تبين أن الدافع الذى أرغم سنوحى على العيش عدة سنوات بعيدا عن القاهرة غامض كل الغموض . ولعل الغموض متعمد . ومن الوضح أنه متصل بوفاة الملك أمنمحت الأول (الذى نعرف الآن أنه قتل نتيجة مؤامرة) ومسألة خلفه فى اعتلاء العرش . فقد كان الابن الأكبر للملك العجوز ، سيزوستريس ، الذى كان شريكه فى الحكم مدة عشر سنوات ، وكان خلفه الطبيعى ، عائدا من حملة فى ليبيا فى ذلك الوقت — يبدو أنه كان قد وصل إلى بقعة قريبة جدا من الحدود المصرية ، إن لم تكن داخلها — وطبيعى أن الرسل أخبرته بوفاة أبيه . وعند سماع هذه الأخبار تقدم إلى « مقر الملك » بأقصى سرعة ممكنة . ولكن يبدو أنه كان هناك مؤامرة فى البلاط (ربما حاكها قتلة الملك العجوز) لوضع ابن آخر للملك على العرش ؛ واستدعى هذا الأمير ، الذى كان عائدا من ليبيا أيضا ، للمقابلة . وسمع سنوحى الحديث الدائر بينه وبين شخص آخر أو أشخاص آخرين لم يعينوا . وإذ سمع سنوحى هذا الحديث استولى عليه ذعر شديد ، ورغبة جامحة فى مغادرة مصر والابتعاد عنها ما أمكن . ولكن لماذا أثر فيه ماسمعه هذا التأثير ؟ أوضح جواب أن سنوحى بسماعه أسرار الدولة ذات الأهمية

الفائقة عرف أكثر مما يباح لأمثاله ، وأن الحزب المدمر فى البلاط لن يرضى بغير قتله ، إذا وصل إلى علمه أنه عرف أهدافهم ، ولو عن غير قصد . وإشارات سنوحى إلى سبب هروبه متنوعة ومتناقضة : يخبرنا فى مواضع مختلفة أن (ا) إلها استولى عليه وساقه إلى هرب كان مقدرا عليه ؛ (ب) قلبه أرغمه على التجول فى الخارج (وهو رأى شاركه فيه الملك فى رسالته) ؛ (حـ) أنه لا يعرف . وفى ثلاثة مواضع يقول سنوحى أو أطفال الملك : إنه هرب خوفا من الملك ؛ ويؤكد سنوحى ذات مرة أنه لم يكن خائفا[٣] . ويقول أحسن معلق على سنوحى « ليست أقل النقاط إغراء فى هذه الحكاية الجذابة أن سببها نفسه على هذا الغموض[٤] » ؛ ولكن آخرين قد يجدون هذا الغموض يثير الحنق بعض الشىء ، وواضح أن القصة لم تدون من أجلنا ، وأن قراءها من المصريين ربما كانوا يعرفون أحسن المعرفة الأحداث الخلفية التى مثلت هذه الدراما ذات الأحداث العالية أمامها . أما اليوم فيبدو محالا أن نحصل من الأقوال المتنوعة فى القصة على أى فكرة واضحة متسقة عن أسباب الهروب .

ولا شك ألا تناقض فى اضطرار سنوحى إلى التعبير عن فهمه التام لإساءته العظيمة إلى الملك بهروبه ، ودعائه ليغفر له ويأذن له بالرجوع ، وإتباع ذلك باستلامه رسالة يعرض فيها الملك جميع وسائل الإغراء ليغريه بالعودة ، ولكنه يتضح أن سنوحى ، الذى كان يرزح تحت شعور بالإثم ، كان يسىء فهم مسلك الملك نحوه إساءة تامة .

وأسلوب القصة الأدبى أكثر تطورا من أسلوب أى مؤلف مصرى آخر معروف لنا . فعلى حين يمتاز معظم الآثار الأخرى بالرتابة الكبيرة فى بناء الجمل (مثل « ودخل ، وجلس ، وقال ، و . . . » فى قصة ،

و « دخل ، جلس ، قال . . . » فى أخرى) يستعمل سنوحى كل بناء للجملة ، وكل زخرف عرف فى عصره ، مع ألفاظ كثيرة ، ليمنح قصته التنوع والتلون . والأمر الذى يؤسف له أن كل هذا لا يمكن إبرازه فى ترجمة إنجليزية .

وقد اتهم سنوحى ، كصاحب أسلوب ، بالتصنع ، ومثل لهذا العيب بأمثال العبارات التالية : « منحت طريقا إلى الشمال لقدمى » و « اتخذت وضعا حانيا » و « استولى على سقوط العطش . » وربما كانت هذه عبارات متصنعة ؛ وربما كانت أيضا — ويبدو لى أنه الرأى الأكثر احتمالا — مجرد تعبيرات لم نقابلها فى أثر آخر بعد . وليس لدينا فى الوقت الحالى من المادةما يكفينا للقطع برأى فى مثل هذه المشكلة ؛ فنحن فى حاجة إلى الكثير ، فى صورة نصوص أدبية من « اللغة المصرية الوسطى » ، مع دراسة متعمقة لها قبل أن نستطيع أن ننقد مواطن الجمال فى الأسلوب المصرى الأدبى ، نقدا يبلغنا نتائج مفيدة .

ولكن مهما كانت نقائص « مغامرات سنوحى » ، أو مهما بدت ، كانت تعتبر ، ويجب أن نعتبرها ، أثرا تقليديا من آثار الأدب المصرى . وفى هذا الصدد ، لا أستطيع أن أقوم بعمل أحسن من اقتباس فقرة (لست أول من اقتبسها) للمعلق المذكور آنفا ، إذ أنها تبرز جدارة القصة لهذا المركز بعبارات لا أستطيع أن أحسنها ولا أرغب أن أغيرها :

« إنها أثر تقليدى لأنها تعلم مرحلة محددة فى تاريخ أدب العالم ؛ وهى أثر تقليدى لأنها تعرض فى صراحة لا يستطاع تقليدها السذاجة والمهارة المختلطين فى الشخصية المصرية القديمة ، واستقامة نظرها وتباهيها ، وهيبتها ، وفكاهتها . ولابد أن يجد دارسو مصر القديمة الذين ليست

ثقافتهم من ذلك الطابع الضيق الذى يجعلهم لا يحسون بالبسيط والطبيعى من الأمور ، التقلبات التى تعرض لها سنوحى فى تطوافه مفعمة بالسحر . وفى هذه السطور الثلاث مئة كثير من التنوع ؛ الوصف الموجز ولكن فى سمو لوفاة الملك العجوز ؛ والوصف المصور لهروب سنوحى ؛ وأهوال الصحراء وكرم القبائل البدوية ؛ والمدح المتملق ولكن فى شاعرية لسيزوستريس الأول . ونشم فى وصف المبارزة مع الفلسطينى القوى ريح العهد القديم ، وتكشف الفقرة التى تصف تشوق سنوحى لمصر فرعون كشفا كاملا عن الخلق المصرى كما نجده فى أى مكان . ثم فيها رسالة فى العفو عنه ، وإلحاحها المميز لها على موضوع شعائر الدفن الذى يملأ جوانبها ؛ ورد سنوحى ، الذى يختلط فيه الذعر الواضح الشديد من فرعون بالتملق الصناعى والمعدود . وليس فى القصة شىء أكثر حياة . . . من صورة استقبال سنوحى فى البلاط . إذ نحمل إلى الوراء أربعة آلاف سنة ، كأنما بلمسة سحرية ، لنشاهد ذعر سنوحى الحقير إذ يلقى بنفسه على الأرض بجوار قدمى فرعون ، ولنتطلع إلى عفو فرعون الكريم إذ يقدم فى شبه سخرية الرحالة المغبر إلى الملكة . . . » .

* * *

يقول الأمير الوراثى والشريف ، وخازن الملك فى مصر الشمالية ، والرفيق الوحيد(٥) ، والمدير الإقليمى لمستعمرات الملك فى بلاد البدو ، والصديق الصادق ، المحبوب للملك ، والتابع سنوحى :

أنا تابع يتبع مولاه ، وخادم الأميرة المحبوبة عظيم الحب فى الحريم الملكى ، زوجة الملك سيزوستريس (١) فى بلدة خنم —

أسوت[٦] ، وابنة الملك أمنمحعت (١) فى بلدة كانفرو ، السيدة المحترمة نفرو .

فى العام الثلاثين من عهده[٧] ، الشهر الثالث من فصل الفيضان ، فى اليوم السابع منه ، صعد الإله إلى أفقه ، ملك مصر الجنوبية والشمالية ، سحتب ايب رع[٨] ، صعد إلى السماء ، واتحد مع الشمس ، وامتزج لحم الإله بلحم من خلقه[٩] . وصمت مقر الملك ، وامتلأت القلوب حزنا ، وأغلق الباب المزدوج العظيم (للقصر) ، وجلس رجال القصر ورءوسهم على حجورهم ، وحزن القوم .

وكان جلالته قد أرسل حملة عسكرية إلى أرض الليبيين ، وعلى رأسها ابنه الأكبر ، الإله الطيب ، الملك سيزوستريس[١١] ؛ وكان (سيزوستريس) عائدا ، جالبا أسرى من بنى تحنو[١٢] ، وجميع أصناف الماشية التى يخطئها الحصر . فأرسل أمناء القصر[١٣] الرسل إلى الجانب الغربى[١٤] لإخبار ابن الملك[١٥] بما آلت إليه الأمور فى القصر الملكى[١٦] . فوجده الرسل فى الطريق ؛ وبلغوه فى المساء . فلم يتمهل لحظة ؛ وإنما طار الصقر[١٧] مع خادمه دون أن يدع الجيش يعلم بذلك .

وكان قد أرسل بعضهم إلى أبناء الملك الذين كانوا تحت قيادته فى الجيش ، واستدعى أحدهم[١٨] . وكنت واقفا ساكنا ، وسمعت صوته وهو يتحدث من بعد ، على حين كنت قريبا (من الذى

كان يحادثه) فاحترق قلبي ، وخارت ذراعاى ، وهوت جميع أعضائى مرتجفة . فجريت قافزا لأجد مكانا أختبىء فيه . ووضعت نفسى بين شجرتين ، لأقطع جزءا من الطريق عمن يسير عليه[١٩]. وتقدمت إلى الجنوب ؛ ولم أرم إلى الوصول إلى هذه[٢٠] العاصمة ، لأننى توقعت نشوب قتال مدنى ، ولم أظن أنى أعيش بعده[٢١] .

وعبرت بحيرة « موتى » ، القريبة من « نوحت » ، ونزلت فى جزيرة سنفرو ، وقضيت اليوم على حافة النهر . ثم ابتدأت السير حين طلع النهار . ولو قابلت رجلا يعترض طريقى ، لاحترمنى ، خائفا . وعندما أتى وقت العشاء ، بلغت مقاطعة « جو » ، وعبرت فى قارب بدون دفة ، بمساعدة نسيم يهب من الغرب . ومررت إلى الشرق من المحجر وراء « سيدة الجبل الأحمر[٢٢] » . وواصلت السير راجلا إلى الشمال وبلغت جدر الحاكم[٢٣] ، المقامة لصد البـدو والقضاء على أهل الصحراء[٢٤] . واتخذت مكانا مستورا تحت شجرة ، خوف أن يكون الحارس النهارى على رأس الجدار ناظرا ، ثم واصلت السير فى المساء ؛ وعند الفجر وصلت إلى « بتن » ، ووقفت فى جزيرة « قمور » ، إذ غلبنى هجوم العطش . وكنت صاديا ، وحلقى مليئا بالتراب ، وقلت : « هذا مذاق الموت ! » .

ثم رفعت قلبى ، لأستجمع أعضائى ، لأننى سمعت ثغاء ماشية ووقع بصرى على بدو وعرفنى منهم شيخ ، قد كان فى مصر . فأعطانى ماء ، وغلى لبنا من أجلى . وذهبت معه إلى قبيلته ؛ فرأفوا بى .

ورمت بى بلدة إلى أخرى . فتقدمت من « جبيل[٢٦] »
وارتددت إلى « قدمى[٢٧] » ، حيث قضيت سنة . وأرسل ننشى
ابن آمو ، ملك رتنو العليا[٢٨] ، يستدعينى ، وقال لى : « ستكون
سعيدا معى ؛ وستسمع اللغة المصرية » قال ذلك ، وقد عرف
حقيقتى وسمع بكفاياتى ؛ وشهد لى المصريون الذين كانوا معه .

ثم قال : « لماذا قطعت كل هذا الطريق ؟ هل حدث شىء
فى مقر الملك ؟ » .

فقلت له : « لقد انتقل الملك سحتب ايب رع إلى الأفق ،
وليس من المعروف ما قد يحدث نتيجة لذلك ! » ، ولكنى أضفت !
متظاهرا : « لقد عدت من حملة على أرض الليبيين ، وسمعت
بأمر ما ؛ فغشى على ذهنى ، ولم يعد قلبى فى بدنى ، فحملنى ذلك على
قطع الصحراء . لم يلمنى أحد ، ولم يبصق فى وجهى أحد ، ولم أسمع
أية إهانة ، ولم يرد اسمى على فم أى مخبر[٢٩] . ولا أدرى ماذا
ساقنى إلى هذه البلاد ؛ وكأنما هو حكم من الله » .

ثم قال لى . « كيف ستسير تلك البلاد بدونه ، ذلك الله المحسن ،
الذى انتشر الخوف منه فى الأقطار مثل سخمت[٣٠] فى سنة
وباء ؟ » .

فقلت له مجيبا إياه : « ولكن ابنه دخل القصر وأخذ
ميراث أبيه .

وهو إله ، لا منافس له .

ولم يوجد قبله مثله .
وهو رب الحكمة ، كامل فى خططه ، محسن فى أوامره .
يصعد الناس ويهبطون (الأرض) وفقا لأمره .
وهو الذى أخضع البلاد الأجنبية وأبوه فى قصره .
وبعث إليه التقارير عندما تم ما أمر به .
وهو قدير ، يعمل بقوة ذراعه .
وهو رجل أعمال لا كفؤ له .
تراه منقضا على العدو الهمجى .
ملقيا بنفسه فى حومة الوغى .
وهو الذى يثنى القرون[٣١] ، ويضعف الأيدى .
فلا يستطيع أعداؤه أن ينظموا قواتهم .
وهو حاد البصر* ، محطم للجماجم .
لا يستطيع أحد أن يقف بجواره .
وهو سريع الخطو إلى سحق الهارب .
لا غاية يقف عندها من يوليه ظهره** .
وهو شجاع فى لحظة الصد :
وهو الذى يفر منه أعداؤه ، ولا يعطى ظهره لأحد .

---

* سليم حسن : وانه لمنتقم .
** سليم حسن : أى أن الهارب لا يصل الى غايته سالما .

وهو ثابت الجنان عندما يرى عدوا :
لا يسمح لقلبه بأية راحة .
وهو شغوف حين يرى معمعة :
وغبطته فى سحق الجموع الهمجية .
وهو يرفع درعه ويدوس تحت القدم [العدو] :
ولا يعيد ضربته ليقتل .
ولا أحد يستطيع أن يحول سهمه :
ولا يستطيع أن يشد قوسه .
والهمج يهربون أمامه .
كأنهم أمام قدرة العظيم[٣٢] .
وهو يحارب ، عارفا بالنهاية :
فلا يبقى ، ولا يذر .
وهو رب الجاذبية ، عظيم العذوبة :
تغلب بالحب .
وتحبه مدينته أكثر من حبها نفسها :
وتبتهج به أكثر من ابتهاجها بإلهها .
ويشيد به الرجال والنساء كثيرا أنه ملك[*] .

---

* سليم حسن : والرجال والنساء يمرون أمام قصره فرحين به . وهو ملك قد فتح ...

وقد فتح البلاد ولا زال فى البيضة[٣٣] :
وكانت وجهته نحوه (الفتح) منذ مولده .
وهو يزيد عدد من ولدوا معه* :
وهو فريد ، هبة من الله .
فما أعظم غبطة هذه البلاد أن صار حاكما لها !
فهو الذى يمد الحدود .
وسيفتح الأقطار الجنوبية :
وسيحتقر الأراضى الشمالية .
فقد خلق لسحق البدو .
والقضاء على أهل الصحراء .

« ابعث إليه ، وعرفه باسمك باعتباره اسم باحث بعيد عن جلالته . فلن يخفق فى الإحسان إلى قطر خاضع له » .

وقال لى : « وإذن فمصر سعيدة ، لأنها تعرف أنه مفلح . ولكن تأمل ، فأنت هنا ، فستعيش إذن معى ؛ وسأحسن معاملتك ! »

ووضعنى على رأس أبنائه ، وزوجنى من ابنته الكبرى . وجعلنى أختار قطعة من بلاده ، بل من أحسن ما يملك على حدوده المتصلة بقطر آخر . وإنها لأرض طيبة ، تسمى ياء ؛ فيها التين

---

* اى يزداد عدد الناس تحت حكمه . (سليم حسن) .

والعنب ؛ وخمرها أكثر من مائها ، وفيها كثير من العسل ، وزيت الزيتون غزير ؛ وجميع الثمرات تنبت على أشجارها ؛ وفيها مالا يحصر من القمح والشعير ، وجميع أنواع الماشية .

ووهبني الكثير ثمرة حبه لى . ونصبني حاكم قبيلة ، أحسن قبيلة فى بلاده . وأمدني بالذخائر كالخبز اليومى : والخمر لسد الحاجات اليومية ، واللحم المسلوق ، والطيور المشوية ، فضلا عن لعبة الصحراء — لأن الحيوانات كانت تصاد وتسلم إلى ، وفضلا عما تجلبه لى كلابى . وصنع من أجلى كثيرا من الخمر المعتقة ، واستخدم اللبن فى جميع المطهيات .

وهكذا قضيت عدة سنين ، وصار أبنائى رجالا أقوياء ، كل منهم يحكم قبيلته . وكان الرسول الذى يذهب شمالا ، أو جنوبا إلى مقر الملك ، ينزل عندى(٣٤) ؛ وكنت أستضيف كل إنسان . فاعتدت أن أمنح الظمآن ماء ، وأهدى الضال إلى سواء السبيل ، وأنجى من نهب ماله . وعندما جرؤ البدو للأسف على معارضة ملوك الأراضى الأجنبية ، وضعت خطة لهم (للملوك) ليعملوا وفقا لها . وجعلنى ملك رتنو * أقضى عدة سنوات قائدا لجيشه . فكل قطر تقدمت نحوه ، فتحته ، وأبعدته عن مراعى آباره ؛ وغنمت قطعانه ، وأسرت أهله(**) ، وسلبت طعامهم ، وقتلت

* سليم حسن : فلسطين .

** كذا عند سليم حسن ، وعند ارمان : وأطرد سكانها ، وفى النص الانجليزى : وأعدت أهله .

قومه ، بقوة ذراعى ، وبقوسى ، وبحركاتى ، وبخططى الفعالة . فقدرنى ، وأحبنى ، لأنه عرف أننى شجاع . ووضعنى على رأس أبنائه ، لأنه رأى يدى ناجحتين .

وأتى رجل قوى من رتنو يتحدانى فى خيمتى . وكان بطلا لا نظير له ؛ فقد غلب جميع الرتنو ، ورمى إلى مقاتلتى . وتوقع أن يصرعنى ووضع خططه ليغنم قطعانى ، بمشورة من قبيلته .

واستشارنى الملك (ننشى بن آمو) ، فقلت ، إننى لا أعرفه ، وفى الحقيقة لست مرتبطا به ، ذلك الذى يسير حرا فى معسكره . أفتحت بابه ، أو تسورت جداره ؟ إنها الغيرة ، لأنه يرانى أنفذ أعمالك . ولكننى كثور قطيع سائم فى وسط قطيع آخر ، يهاجمه ثور منه ويوائبه ذو القرن الطويل منها . أيوجد خامل محبوب بسبب أمر من متفوق ؟ إنه لا يوجد همجى يحالف رجلا من دلتا مصر . إذ ما الشىء الذى يستطيع أن يثبت شجرة بصخرة ؟ هل يحب الثور القتال ، وهل يحب الثور المتوحش أن يدير ظهره خوف أن يكافئه ؟ إن كان مصرا على النزال فليقل ما يريد . أو يجهل الله ما أمر أن يعرف ؟ وكيف يكون الأمر ؟

وبعد استراحتى الليلية شددت قوسى واختبرت سهامى ؛ وأرهفت خنجرى ، وصقلت أسلحتى . وعندما طلع الفجر جاءت رتنو جميعها . فقد أثارت قبائلها ، وجمعت الشعوب على حدودها ووضعت الخطط لهذا النزال . ثم جاء إلى ، على حين انتظرت ؛

ووضعت نفسى قريبا منه . واحترق كل قلب من أجلى ؛ ولغطت النساء بل والرجال . ورثى لى كل إنسان ، وقال : أيوجد رجل آخر شديد البأس يستطيع أن ينازله ؟ (٣٦) ثم هوى أمامى درعه وفأسه ، وحزمة حرابه ، عندما نجوت من أسلحته وجعلت أسهمه تمر بى طائشة ، فلم يبق له شىء . واقترب كل من الآخر . وهاجمنى ، فأرسلت سهمى عليه ، فلصق بعنقه ، فصاح وسقط على أنفه . وقتلته بفأسه ، وأرسلت صيحتى فى الحرب على ظهره ، على حين صاح كل آسيوى ؛ وأثنيت على « منتو (٣٧) » بينما كان أتباعه فى حزن عليه . وضمنى هذا الملك ننشى بن آمو إلى صدره . ثم أخذت متاعه ؛ وغنمت قطعانه . وما عزم أن يفعله بى ، فعلته به . وسلبت ما كان فى خيمته ، ونهبت معسكره . وازددت عظمة بذلك : وازدادت ثروتى ، وكثر قطيعى .

كذا فعل الإله ، رحمة بمن سخط عليه حين فر إلى قطر آخر ! أما اليوم فقد عاوده الفرح .

هارب يطير بسبب شئونه* ؛
ولكن ذكرى الحسن فى مقر الملك .
متثاقل وئيد الخطو بسبب جوعه ؛
ولكن أعطى الخبز لجارى .

---

* الأبيات عند سليم حسن تقارن بين حاله عند فراره ، وحاله الآن ، فالبيت الأول من كل منها ماضى الأفعال ، والثانى حاضرها .

رجل يغادر بلاده بسبب العرى ؛
ولكنى لدى الأردية البيض والكتان الحسن .

رجل يسرع لافتقاده من يستطيع أن يرسله ؛
ولكنى أملك كثيرا من الرقيق .

دارى جميلة .
ومقعدى مريح ؛
وذكراى فى القصر .

وأنت أيها الإله الذى أمر بهذا النزال ، أيا كنت ، ارحمنى وأعدنى إلى مقر الملك ! لعلك تسمح لى برؤية المكان الذى يسكن فيه قلبى ! فماذا أهم عندى من أن أدفن فى مصر ، مادمت قد ولدت فيها ؟ إنه التماس للعون . فلعل الحظ الحسن يصادفنى ، ولعل الله يمنحنى السلام ، لعله يمنحنى ذلك لتحسن خاتمة من قد عذبه ، ويرثى لمن ألقى به ليعيش فى الخارج ! هل هو مسرور الآن ؟ لعله يسمع صلاة البعيد ! ولعله يبعد يده عمن أرسله متجولا فى الأرض ، ويعيده إلى المكان الذى أخذ منه [٣٦] ! ولعل ملك مصر يكون عطوفا على ! أنا الذى أعيش فى عطفه . ولعلنى أحيى سيدة البلاد[٣٩] التى فى قصره ، ولعلنى أسمع شئون أبنائها ! فيرتد بدنى شابا ثانية ، إذ قد نزل بى كبر السن واستولى على الضعف ؛ فعيناى ثقيلتان ويداى ضعيفتان ، وقدماى بطؤتا ، وقلبى ينحدر نحو الضعف . وأنا على وشك الموت ، عندما يقودوننى إلى مدينة الخلود [٤٠] .

لعلنى أخدم سيدة الجميع [٣٩] ! لعلها إذن تخبرنى أن حال أبنائها حسنة . ولعلها تخلع على الأبدية [٤١] !

والآن قد أخبر جلالته ، ملك مصر الجنوبية والشمالية ، خبر كارع [٤٢] ، بهذه الظروف التى أنا فيها ، واستمر جلالته يتخولنى بالمنح من الفيض الملكى ، ليبعث الفرح فى هذا الخادم فكأنه ملك قطر أجنبى . وسمح لى أبناء الملك ، فى قصره ، بسماع أخبارهم .

صورة الرسالة[٤٣] التى جلبت إلى هذا الخادم لتعود به إلى مصر

حورس ، حياة المواليد ؛ السيدتان ، حياة المواليد ؛ ملك مصر الجنوبية والشمالية ، خبر كارع ؛ ابن رع ، سيزوستريس [٤٤] . أحياه الإله إلى أبد الآبدين !

رسالة ملكية إلى التابع سنوحى .

انظر ، رسالة الملك هذه مجلوبة إليك لتذكرك أنك قد طوفت فى أقطار أجنبية . فقد تقدمت من « قدمى » إلى « رتنو » ورمت بك أرض إلى أخرى ، بمشورة من قلبك . فماذا فعلت حتى يبرم شىء ضدك ؟ إنك لم تتفوه بما يجلب السخط ، حتى يخطأ حديثك ولم تعب سياسة محفل الحكام ، لتنكر أقوالك . لقد انتزعت هذه الفكرة منك قلبك ؛ ولم تكن فى قلبى ضدك .

ولا تزال سماؤك [٤٥] هذه ، التى فى القصر ، تسكنه وتفلح

فيه ولها نصيبها فى ملك الأرض* . وأبناؤها فى البلاط الملكى ؛
وستجمع أشياء جيدة من منحهم . وستعيش بكرمهم .

عد إلى مصر . لترى مقر الملك ، الذى شببت فيه . وستقبل
الأرض عند الباب المزدوج العظيم ، وستلحق بالرفاق .

لأنك الآن شرعت تتقدم فى السن . وقد فقدت قوتك الشديدة .
فكر فى يوم التحنيط ، وفى المرور إلى دار النعيم . عندما يعين
ليل لك بالزيت العطرى ، وأكفان على يدى ، تايت ، [٤٦] ؛
وكيف يقام لك حفل جنائزى فى يوم الدفن ، مع غطاء من
الذهب للمومياء ، ومن اللازورد الأزرق للرأس [٤٧] ، وفوقك
سماء ، وتوضع فى زحافة ، تجرك الثيران ويتقدمك المغنون .
وستؤدى الرقصات الجنائزية على باب قبرك ، وتقرأ قائمة القرابين
من أجلك ؛ وتنحر الحيوانات على أبواب شواهد قبرك ، وتبنى
أعمدة قبرك من الحجر الجيرى ، بين قبور أبناء الملك . إذ يجب
ألا تموت بالخارج . فالآسيويون لن يشيعوك (إلى مدفنك) ؛
ولن توضع فى جلد غنم وإنما يصنع ركام لك [٤٨] . وإنها لمدة طويلة
جدا قضيتها مطوفا فى الخارج . فكر فى المرض (المميت) ، وعد .

* * *

وصلت إلى هذه الرسالة وأنا واقف بين قبيلتى . فقرئت لى ،

---

* كذا عند سليم حسن ، وفى النص الانجليزى : ورأسها مغطى بلكية (بفتح الميم واللام) الاراضى .

فألقيت بنفسي على بطني ولمست التراب (بجبيني) ، ونثرته على رأسي . ودرت حول مخيمي مبتهجا ، قائلا : «كيف يفعل هذا لفرد أضله قلبه وساقه إلى بلاد الهمج ؟ حقا إن الرفق الذى خلصني من الموت طيب ! وإن سرورك الطيب سيسمح لى أن أقابل نهايتي ، وبدنى فى مقر الملك !

صورة جواب هذه الرسالة

« يقول خادم القصر ، سنوحي :

فى سلام غاية فى الحسن ! إن الفرار الذى ارتكبه هذا الخادم فى غباء معروف لدى روحك ، أيها الإله الطيب ، يارب الأرضين ، الذى يحبه « رع » ويميل إليه « منتو » ، رب طيبة . وليعطك الحياة آمون[٤٩] ، رب عروش الأرضين ، وسبك — رع ، وحورس ، وهاتور ، وآتوم ، وآلهته التسعة ، وسبدو — نفرباو ، وسمسرو ، وحورس الشرقى ، وسيدة يمت — ليتها تضم رأسك ! — والمجتمع الخاص على المياه(*) ، ومين — حورس فى وسط البلاد الأجنبية ووررت ، سيدة بنت ، ونوت ، وحروير — رع ، وجميع آلهة مصر وجزر البحر[٥٠] ، وليمنحوا أنفك الغبطة ، وليجزلوا لك هداياهم ، وليعطوك أبدية دون قيد وخلودا دون حد ؛ وليتحدث الناس فى الخارج عن الخوف منك فى السهل والحزن — فقد أخضعت جميع ما تحيط به الشمس ! ذلك هو دعاء هذا الخادم لسيده ، الذى ينجى من الغرب[٥١] .

لقد أدرك رب الإدراك ، الذى يدرك الشعب ، ما خاف أن يقوله[٥٢] هذا الخادم فى البلاط ، كأنما كان قائلا أمرا جللا . فيا أيها الإله العظيم ، يا نظير رع فى جعل ذلك الذى يعمل من أجل نفسه حكيما ، إن هذا الخادم فى رعاية من يستشير بصدده ؛ وأنا تحت إرشاده . فجلالتك حورس الفاتح ؛ ويداك مظفرتان على جميع البلاد .

فلتأمر الآن جلالتكم أن يؤذن لى بإحضار « مكى » من « قدمى » الجنوبية ، و « يوش » من « كيشو » و « منوس » من بلاد الفينيقيين[٥٣] ؛ وهم ملوك مشهورو الأسماء ، شبوا فى حبك . ولن أذكر رتنو ، فهى ملكك مثل كلابك نفسها .

أما هذا الفرار الذى اقترفه خادمك ، فلم أعرفه قبلا ، ولا كان فى ذهنى ، ولا وضعت الخطط له ؛ ولا أدرى ما الذى أبعدنى عن مكانى . وإنما كان كحلم ، كرجل من الدلتا رأى نفسه فى الفنتين ، أو رجل من المستنقعات الشمالية فى النوبة . ولم يزعجنى أحد ، ولا تبعنى أحد ولا سمعت كلاما معيبا ، ولا سمع اسمى على فم مخبر . ولكن زحف لحمى ، على حين هرولت قدماى ، وسيطر قلبى على ، وجعل الإله الذى أمر بهذا الفرار يستحثنى . ولست دعيا . [على أن الرجل الذى يعرف بلاده يخاف][٥٤] .

وقد بث رع خوفك فى جميع الأرض (مصر) ، ورعبك فى كل قطر أجنبى . وسواء كنت فى مقر الملك أو هنا فأنت الذى

تحجب هذا الأفق ، والشمس تشرق بمشيئتك . والماء فى الأنهار ، يشرب منه عندما ترغب ؛ وهواء السماء ، يتنفس بأمرك .

وسيسلم هذا الخادم الوزارة التى مارسها هنا . وستفعل جلالتك ما تشاء ؛ وإنما لا يعيش المرء إلا بالنفس الذى تمنحه إياه . ويحب رع ، وحورس ، وهاتور أنفك الأشم ، الذى يرغب منتو ، رب طيبة ، أن يعيش أبداً » .

* * *

استدعى هذا الخادم ؛ وأذن لى أن أقضى يوما فى ياء لأسلم أملاكى إلى أبنائى ، وعهد إلى ابنى الأكبر الإشراف على قبيلتى ، وصارت جميع أملاكى ملكا له — رقيق ، وقطعانى ، ومخازن الفاكهة ، وكل ما أملكه من أشجار الفواكه . ثم تقدم هذا الخادم متجها إلى الجنوب . ووقفت عند طرق حورس[٥٦] ، وأرسل القائد المكلف بحراسة الحدود هناك رسالة إلى مقر الملك حملها أخبارى . ثم أرسل جلالته مشرفا كفؤا من فلاحى المستعمرة الملكية ، وفى إثره سفنا محملة بالمنح الملكية للبدو الذين تحت إشرافى ، يقودوننى إلى طرق حورس . فقدمت كلا منهم باسمه . وكان كل خادم فى عمله . ثم تقدمت ورفعت الشراع ، واشتغلوا هم بالعجن والصب[٥٧] إلى جوارى ، إلى أن وصلت إلى مشارف يت تووى[٥٨] .

وفى الصباح التالى ، جاءوا مبكرين جدا لاستدعائى ، عشرة رجال يأتون وعشرة يذهبون ، ليقودونى إلى القصر . ولمست

الأرض بجبهتى بين آباء الهول[٥٩] ؛ وكان أبناء الملك واقفين فى المدخل لاستقبالى ، وذهب بى الأمناء ، الذين أذن لهم بالذهاب إلى الصالة الأمامية من القصر ، إلى الطريق إلى الحجرة الملكية . ووجدت جلالته على عرش من الذهب . فانبطحت على بطنى ، وشرد لبى فى حضرته . فحيانى هذا الإله فى رفق ، ولكنى كنت كرجل محمول فى الغبار ؛ فروحى مغشى عليها ، ولحمى مرتجف ، وقلبى فى غير بدنى حتى أعرف الحياة من الموت . ثم قال جلالته لأحد الأمناء ، « أنهضه ، ودعه يحادثنى » . وقال جلالته : « ها أنت ذا قد عدت بعد التطواف فى الأراضى الأجنبية . لقد غلبك الفرار ؛ ووهن جسمك ، وطعنت فى السن . ليس بالأمر الهين أن يدفن جسدك دون أن يشيعك إلى قبرك الهمج . ولكن لا تعمل ما يضيرك ، أيها الصامت ! إنك لم تتكلم عندما ذكر اسمك » .

وخفت العقاب ، فأجبت جواب الخائف : « ماذا يقول مولاى لى ؟ (لو عرفت) لأجبته حينئذ . إننى لا أستطيع أن أفعل شيئا . فالفزع يد الإله ؛ وهو فى بدنى مثل الذى دفعنى إلى الفرار الذى كان مقدرا على . تأمل ، إننى فى حضرتك ، والحياة ملكك . فتصرف جلالتك كما تشاء » .

حينئذ سمح لأبناء الملك بالدخول ؛ وقال جلالته للملكة : « انظرى ، لقد عاد سنوحى كآسيوى من نسل البدو » فبعثت

صيحة جد مرتفعة ، على حين صاح أبناء الملك جميعا حالا ؛ وقالوا لجلالته : « إنه ليس إياه حقيقة ، أيها الملك ، مولانا ؟ » وقال جلالته : « بل إنه هو حقا » .

وكانوا قد جلبوا عقودهم ودفوفهم وصاجاتهم[٦٠] معهم ، فأبرزوها لجلالته :

« فلتستقر يداك على الجميل ، أيها الملك الخالد .
على حلى سيدة السماء .

لتمنح الذهبية أنفك الحياة .
وتضحك سيدة النجوم[٦١] .

ولينحدر عرش مصر الجنوبية إلى الشمال .
وليصعد عرش مصر الشمالية إلى الجنوب .
فيتحدا ويتصلا بقول جلالتك .

أجويت[٦٢] على حاجبك .
فقد خلصت رعيتك من الشر .

فليرحمك رع ، يا رب الأرضين .
ومرحبا بك ، وبسيدة الجميع[٦٣] .

أرخ قوسك ، وانزع سهمك .
وهب النفس للمختنق .

وامنحنا هذا الشيخ(٦٤) هدية حسنة فى العيد، فهو ابن محيت(٦٥).

همجى مولود فى مصر !

وقد هرب خوفا منك .

وغادر الأراضى فزعا منك .

فلعل وجهه الذى رأى وجهك لا يتحول .

ولعل العين التى شاهدتك لا تخاف ! »

وقال جلالته : « لن يخاف ، ولن يهوى فى الفزع . وسيكون أمينا بين رجال المجلس ، وسيوضع فى وسط رجال الحاشية . فاذهبوا إلى قاعة التطهير ، لتكونوا فى خدمته ! »

ثم غادرت الحجرة الملكية ، وقد صافحنى أبناء الملك . ثم ذهبنا إلى الباب المزدوج العظيم . ووضعت فى دار ابن للملك ، كان فيها أشياء حسنة ، وحمام ، وصور الأفق(٦٦) ، ونفائس من الخزانة ، وأردية من الكتان الملكى ؛ ومر وعطر ذكى ، مما يختص به الملك وأعضاء المجلس المحبوبون ، كان ذلك فى كل غرفة منه . وكان كل خادم منهمكا فى عمله .

وأزيلت السنون من جسدى : وحلقت ، ورجلت شعرى . وألقى إلى الصحراء حمل — ملابسى إلى أهل الرمال . وألبست الكتان الرقيق ودلكت بالزيت الحسن ؛ ونمت بالليل على فراش . وتركت الرمال لمن يعيشون عليها ، وزيت الخشب لمن يحب التدلك به .

ومنحت دار حاكم مقاطعة ، دارا كانت من أملاك أحد الأمناء . وقد جددها كثير من الصناع ، وأصلح كل ما بها من صناعة خشبية . وجلب لى الطعام من القصر ، ثلاث مرات وأربعا فى اليوم ، فضلا عما كان يمنحنى أبناء الملك ، دون أن ينقطع لحظة .

وبنى هرم لى[٦٧] من الحجر ، فى وسط الأهرامات . وقد تقاسم البناءون الذين يقيمون الأهرامات العمل فيه بينهم . فعمل كبير المهندسين فى تخطيطه ، ونحت كبير الناحتين فيه ، واشتغل رؤساء البنائين فى الصحراء فيه . وزود بكل ما يوضع فى مدفن . ووهبت خدما لكا[٦٨] ، وصنعت من أجلى حديقة صحراوية ، كانت أرضها أجود من أراضى المدن ، وشبيهة بما صنع لكبير الأمناء . وغطى تمثالى[٦٩] بالذهب ، ومئزره بالكهرمان .

وجلالته هو الذى أمر بذلك . ولا يوجد مسكين عمل من أجله ما يشبه ذلك . وإنى أتمتع بعطف من الفيض الملكى إلى أن يأتى يوم « الاستقرار[٧٠] » .

كتبت من البداية إلى النهاية كما وجدت مخطوطة

١ — تعرف الشيخ الذى أنقذ حياته فى الصحراء عليه ، وقدرة المصريين فى بلاط الملك الآسيوى على الشهادة بحقيقته وكفاياته ، دليلان على أنه كان مشهورا فى عصره — وفقا للقصة .

٢ — موقع كيشو ، وياء أيضا ، مجهول. كذلك من غير المستطاع تحديد مواقع بحيرة موتى ، ونوحت ، وجزيرة سنفرو ، وجو ، وبتن ، فى داخل الأراضى المصرية بالدقة .

٣ — ليس هذا هو التناقض الوحيد فى القصة . فما دام أبناء الملك كانوا واقفين على مدخل القصر لاستقبال سنوحى عند عودته من الخارج (انظر ص ٦٢) ، فلم أبدوا كل تلك الدهشة وعدم التصديق عند ما أخبرهم والدهم بعد ذلك بقليل ان الرجل الذى معه هو سنوحى ؟

٤ — Alan H. Gardiner, Notes on the Story of Sinuhe ص ١٤ ؛ والاقتباس تحت فى صفحة ١٦٤ .

٥ — لقب شرف ؛ ولعله وجد عدد من « الرفيق الوحيد » (للملك) فى الوقت الواحد ! وعن « الرفيق » انظر التعليقة ١٣ .

٦ — مواضع بنى فيها الملوك المذكورون أهرامهم .

٧ — حوالى عام ١٩٧٠ ق.م.

٨ — لقب العرش لأمنمحعت الأول .

٩ — تعبير شعرى عن وفاة الملك .

١٠ — انظر عن هذه الكلمة التعليقة ٩ ، فى جزيرة الثعبان .

١١ — اشترك سيزوستريس الأول مع أبيه فى الحكم حوالى عشر سنوات .

١٢ — سكان جزء من الصحراء الليبية ، غرب مصر .

١٣ — اسم أعلى طبقة من رجال البلاط .

١٤ — على غرب مصر الشمالية ، فى اتجاه ليبيا .

١٥ — الأكبر ، سيزوستريس .

١٦ — القسم الخاص من القصر ، الحجرات التى تعيش فيها العائلة المالكة .

١٧ — كان الملك يمثل بالاله الصقر حورس .

١٨ — انظر فى هذا كله مقدمة القصة .

١٩ — أى أنه كلما رأى شخصا قادما اختبأ فى جانب الطريق .

٢٠ — حيث كان سنوحى عند تدوين مذكراته .

٢١ — الملك المتوفى .

٢٢ — معبد لهاتور . الجبل الأحمر (لايزال بهذا الاسم) فى شرق القاهرة قريبا منها .

٢٣ — بنى ليكون سورا يحمى حدود مصر الشمالية الشرقية من الغزو والتسرب .

٢٤ — لقب لبدو صحارى سينا ، وفلسطين ، وبلاد العرب .

٢٥ — البحيرات المرة حديثا ، على خليج السويس .

٢٦ — على بعد قريب من عشرين ميلا الى شمال بيروت ، على الساحل السورى .

٢٧ — لعلها المنطقة الصحراوية فى شرق دمشق .

٢٨ — القسم الجبلى من فلسطين .

٢٩ — ضابط عسكرى يرسل التقارير الى السلطات العليا عن أعمال البطولة وعكسها ، وغيرها من الأمور .

٣٠ — الهة مرعبة على هيئة اللبؤة ، كان يعتقد أنها تجلب الأوبئة .
٣١ — صورة متخذة من ثيران الصيد المتوحشة .
٣٢ — الكوبرا (ارايوس) على جبين الملك ، التى تدمر أعداءه .
٣٣ — الرحم ؟ الطفولة ؟ .
٣٤ — لعله ، ليستلم الرسائل ويسلمها .
٣٥ — يتحدث سنوحى عن نفسه كغريب منعزل فى البلاد . أما بقية حديثه فغامض جدا .
٣٦ — المتحدى .
٣٧ — اله للحرب .
٣٨ — لعل الاله الذى شرع يدا لعقاب سنوحى يردها الى حضنه .
٣٩ — الملكة .
٤٠ — المقابر .
٤١ — اشارة الى الملكة باعتبارها « سماء » سنوحى ؛ انظر رسالةالملكالتالية .
٤٢ — لقب العرش للملك سيزوستريس الأول (حوالى ١٩٧٠ — ١٩٣٦ق٠م ؛
٤٣ — قرار ملكى فعلا ؛ فرسائل الملك تسمى كذلك دائما .
٤٤ — الملكة .
٤٥ — الزيت واللف لجعله مومياء ؛ وتيت ملكة النسج .
٤٦ — غطاء لرأس المومياء وكتفيها ، مرصع باللازورد الأزرق اللامع الزائف فى موضع الشعر والحواجب .
٤٧ — طريقة دفنه فى آسيا الهمجية .
٤٨ — فليرجع المتطلع لزيادة معارفه عن هذه الآلهة المتنوعة الى بعض الآثار عن الديانة المصرية .
٤٩ — الجزر الاغريقية .
٥٠ — موضع الوفاة .
٥١ — تشوقه للعودة الى مصر .
٥٢ — لا نعرف أكثر من ذلك عن هؤلاء الملوك .
٥٣ — ما بين القوسين تكملة عن سليم حسن ، وهى محذوفة من النص الانجليزى لغموضها — ح .
٥٤ — كان الأنف عضو الحياة عند المصريين .
٥٥ — على الحدود بين مصر وفلسطين ، قريبا من القنطرة الحديثة .
٥٦ — اجراءات فى صناعة الجعة ، التى كانت تتم فى قارب الى جوار القارب الذى كان سنوحى مسافرا فيه .
٥٧ — مقر الملك حينئذ ، وكانت على أربعين ميلا الى الجنوب من القاهرة .
٥٨ — عند الباب المزدوج العظيم .

٥٩ — كلها رموز لهاتور ، الهة الحب ، والجمال ، والغبطة .

٦٠ — ثلاثة ألقاب لهاتور .

٦١ — الكوبرا أو ارايوس الهة مصر الشمالية .

٦٢ — الملكة .

٦٣ — يسأل الأبناء عازفين العفو عن سنوحى ، وأن يمنح لهم فى مقابل أمر كانوا سيحيون به يوم عودته المرح .

٦٤ — الدرفين الهة شمال مصر .

٦٥ — غامض .

٦٦ — كان الملك أفضـــل من كلمته ؛ فلم يذكر آنفا غير « قبر » عادى . أما الأهرام فكانت مقصورة عادة على العائلة المالكة .

٦٧ — أشخاص كانوا يحفظون عقيدة الميت بتقـديم القرابين من الأطعمـة ، وانشاد الرقى ، وما أشبه .

٦٨ — وضع فى القبر .

٦٩ — الموت ، الكلمة مأخوذة من وصول المسافر بالبحر الى نهاية رحلته .

عهد الهكسوس

حكايات السحرة

لا تعرف هذه الحكايات إلا من مخطوط واحد ، هو بردية شديدة التلف ، لابداية ولا نهاية لها فى برلين . وتاريخها حوالى ١٧٠٠ ق.م. ، فى « عصر الهكسوس » ، ولكن ربما كانت القصص التى تحتوى عليها أقدم من ذلك العهد كثيرا .

وليس من العسيرأن نعيد بناء بدايتها . فقد احتاج الملك خوفو ، ثانى ملك فى الأسرة الرابعة القوية وبانى الهرم الأكبر ، الذى تولى السلطة حوالى ٢٧٠٠ ق.م. ، إلى التسرية عن نفسه ، فاستدعى أبناءه ، وطلب إليهم أن يسروا عنه بقصص الأعمال السحرية التى وقعت فى عهود الملوك السابقين . ويقف كل ابن فى الجزء الباقى منها ويقص حكايته ، فيأمر الملك بعدها بتقديم القرابين لروح الملك الذى وقعت الأعجوبة فى عهده ، وقربانا (تافها نسبيا) إلى روح الساحر الذي قام بالأعجوبة . ومن المحال القطع برأى فى عدد الحكايات الضائعة فى البداية ؛ ولكن عدد أبناء خوفو لم يكن كبيرا ، وربما كانت أولى هذه القصص الحكاية التى ليس لدينا منها غير الأسطر الأخيرة (السابقة على قصة وباونر مباشرة) ، التى أمر خوفو فيها بتقديم القرابين للملك زوسر و « رئيس مرتليه » (لعله إمحتب) . وبعد حكايتين أخريين متصلتين بالسابقين على خوفو ، يظهر ساحر معاصر ، يفعل العجائب أيضا . ثم تصطبغ القصة بصبغة مختلفة تمام الاختلاف ، لا صلة بينها وبين السحرة وأعمالهم ؛ ولذلك لم يترجم ذلك الجزء .

ويحمل وباونر وزازا معنخ الساحران لقبا ترجمته « برئيس المرتلين » ،

ومعناه الحرفى رئيس الممسكين بكتاب التراتيل ؛ وكان حملة هذا اللقب طبقة من الكهنة ، تخصصت فى السحر ، لاعتيادها ترتيل التعاويذ من جميع الأنواع من الكتب المذكورة . وقد بقى اللقب ، بعد أن صار مرادفا لكلمة « ساحر » أو « متنبئ » ، فى صورة مختصرة إلى وقت متأخر جدا ، ودخل اللغة العبرية التى أطلقته على العرافين المصريين ، وأغلب وروده فيها فى سفرى التكوين والخروج .

وكان من الضرورى تكملة القصة فى بعض المواضع ، بسبب وجود بعض الثغرات فى المخطوط .

١

. . . ثم نهض خفرع[1] ابن الملك ليتحدث ، وقال : « سأسمع جلالتك أعجوبة وقعت فى عهد جدك المغفور له الملك نبكا[2] ، عندما ذهب إلى معبد بتاح ، رب أنختووت[3] .

ذهب جلالته ليتحدث مع رئيس المرتلين[4] وباونر . وكانت زوجة وباونر قد وقعت فى غرام أحد أهل البلدة . وبعثت إليه صندوقا مليئا بالملابس الجميلة . . . ثم عاد مع الوصيفة .

وعندما انقضى على هذا بضعة أيام — وكان بجوار بحيرة وباونر ، حديقة منزلية — قال ذلك البلدى لزوجة وباونر : « لماذا ، ها هى حديقة منزلية بجوار بحيرة وباونر ؛ تأملى ، فلنقض بعض الوقت فيها » . فأرسلت زوجة وباونر رسالة إلى الخادم المشرف على البحيرة ، تقول : « أعد الحديقة المنزلية التى بجوار البحيرة » .

وقضت اليوم فيها ، شاربة وآكلة مع البلدى إلى أن غابت الشمس . فعندما جاء المساء هبط إلى البحيرة (ليغتسل) . وذهبت الوصيفة إلى الخادم وأخبرته بما وقع من زوجة وباونر .

وحينما طلع الفجر وأتى يوم ثان ، ذهب الخادم إلى رئيس المرتلين وباونر وروى له الخبر كله . . . .

حينئذ قال وباونر : « أحضر لى صندوقى الآبنوسى المرصع بالكهرمان . . . » . وصور تمساحا من الشمع ، طوله سبعة أشبار . وقرأ عليه رقية سحرية ، وقال له : « يجب أن تمسك بالبلدى من أجلى ، عندما يأتى للاغتسال فى بحيرتى كعادته اليومية » . وابتعد الخادم ، آخذا معه التمساح الشمعى .

ثم بعثت زوجة وباونر إلى الخادم المشرف على البحيرة ، تقول : « جهز لى الحديقة المنزلية التى بجوار البحيرة ، لأننى آتية لأجلس فيها » . فجهزت الحديقة المنزلية بجميع الأشياء الحسنة . ثم ذهبتا[٥] ، وقضتا عطلة مع البلدى .

وعندما أتى المساء حضر البلدى إلى البحيرة كعادته اليومية . فألقى الخادم التمساح الشمعى فى الماء فى أثره ؛ فصار تمساحا طوله سبعة أذرع[٦] ، وأمسك بالبلدى ، وابتعد به .

وكان وباونر حينئذ مع جلالته ، الملك نبكا ، لسبعة أيام ، فبقى البلدى فى أعمق موضع من البحيرة ، دون تنفس . وعندما

انقضت الأيام السبعة ، تقدم الملك نبكا إلى المعبد . فوضع رئيس المرتلين وباونر نفسه فى الحضرة الملكية ، وقال لجلالته : « ليت جلالتك تذهب وترى هذه الأعجوبة التى وقعت فى عهد جلالتك لبلدى » . فذهب جلالته مع وباونر . فنادى وباونر التمساح ، قائلا : « أحضر البلدى هنا » . وخرج التمساح ، محضرا البلدى ، إلى حيث كانوا . . . فقال جلالة الملك نبكا : « لا شك أن هذا التمساح خطر » . عندئذ هبط وباونر وانتشله ، فصار فى يده تمساحا من الشمع .

وأخبر رئيس المرتلين وباونر جلالة الملك نبكا بما فعل هذا البلدى مع زوجته فى بيته . فقال جلالته للتمساح : « خذ ما هو ملك لك » ، فهبط التمساح إلى أعماق البحيرة ، ولم يدر أحد إلى أين ذهب به .

ثم أمر جلالة الملك نبكا بإحضار زوجة وباونر إلى بقطعة من الأرض فى شمال مقر الملك ، وحرقها ، وذر رمادها فى النهر .

تلك أعجوبة وقعت فى عهد جدك ، الملك نبكا ، وهى من صنع رئيس المرتلين وباونر » .

فقال جلالة الملك خوفو : « فليقدم إلى المغفور له الملك نبكا ألف رغيف من الخبز ، ومئة جرة من الجعة ، وثور ، وحقيبتان من البخور ؛ وليعط لرئيس المرتلين قطعة كبيرة من اللحم ، وحقيبة من البخور ، لأننى شاهدت مثالا من معرفته (السحرية) » .

فتم الأمر كما أمر جلالته تماما .

٢

ثم نهض بوفرع[7] ابن الملك للحديث . وقال : « سأسمع جلالتك أعجوبة حدثت فى عهد أبيك ، المغفور له سنفرو[8] ، وهى من صنع رئيس المرتلين زازا معنخ ، فهى قصة من الأمس ، غير بعيدة العهد . . .

فقد اتفق أن كان جلالته مهتما ، فأمر رجال القصر الملكى أن يبحثوا عن وسيلة للتسرية عنه ، فلم يجد . وقال : « اذهبوا ، وأحضروا لى رئيس المرتلين ، كاتب الكتب ، زازا معنخ » . فأحضر فى الحال ، فأخبره جلالته : « لقد جمعت رجال البلاط الملكى ليجدوا وسيلة للتسرية عنى ، فلم أجد » .

فقال زازا معنخ له : « فلتذهب جلالتك إلى بحيرة الدار العظيمة ، عندما يزود قارب من أجلك بأجمل نساء قصرك جميعا . وسينشرح قلب جلالتك برؤيتهن يجذفن صاعدات وهابطات ، بينما تنظر أنت إلى مواطن الجمال من بحيرتك ، وتنظر إلى مروجها وشواطئها الجميلة ؛ سينشرح قلبك بذلك » .

حينئذ قال جلالته : « ولكنى سأنظم رحلتى فى القارب . فليؤت إلى بعشرين مجذافا من الأبنوس ، المرصع بالذهب ، ومقابضها من خشب « سكب »[9] ، المطعم بالكهرمان . وليؤت إلى بعشرين امرأة ، جميلة الجسد ، ناهدة الثديين ، مجدولة الشعر ، لم تلدن بعد ، وليؤت إلى بعشرين شبكة أيضا ، ولتعط هذه الشباك

إلى هؤلاء النساء ليلبسنها عندما تخلع ملابسهن » . فنفذت أوامر جلالته .

وجذفن صاعدات هابطات ، وسر جلالته من رؤيتهن يجذفات . ثم تعثرت إحداهن ، تلك التى كانت فى المؤخرة[١٠] ، فى شعرها ، وسقطت حلية شعرها التى كانت من الفيروز الجديد[١١] . فكفت عن التجذيف ؛ وكف من إلى جانبها عن التجذيف . فقال جلالته لهن : « ألا تجذفن ؟ » فقلن : « إن قائدتنا كفت عن التجذيف » . فقال جلالته لها : « لم لا تجذفين ؟ » فقالت : « لأن حلية من الفيروز الجديد للشعر قد سقطت فى الماء » . حينئذ قال جلالته لها : « انظرى ، سأعطيك أخرى شبيهة بها » . فقالت : « إننى أفضل حليتى على صورة منها » .

فقال جلالته : « اذهبوا ، وأحضروا لى رئيس المرتلين زازا معنخ » . فأحضر فى الحال . وقال جلالته : « زازا معنخ ، يا أخى[١٢] ، لقد فعلت كما قلت ، وانشرح قلبى برؤيتهن يجذفن . ثم سقط فى الماء حلية من الفيروز الجديد للشعر ، من متاع إحدى القائدات . فكفت عن التجذيف ، فكف صفها عن التجذيف . وقلت لها : لم لا تجذفين ؟ فقالت لى : لأن حلية من الفيروز الجديد للشعر قد سقطت فى الماء . فقلت لها : جذفى ؛ انظرى ، سأعوضك إياها » فقالت لى : « إننى أفضل حليتى على صورة منها » .

حينئذ فاه رئيس المرتلين برقية سحرية ؛ ووضع أحد جوانب

مياه البحيرة على الجانب الآخر منها ؛ فوجد حلية الشعر على قطعة خزف ، فانتشلها ، وأعطاها لسيدتها . وكان عمق الماء فى وسط البحيرة اثنى عشر ذراعا ، فارتفع إلى ٢٤ ذراعا بعد مضاعفته . فتلا رقية سحرية ، فأعاد مياه البحيرة إلى وضعها السابق . وقضى جلالته اليوم فى عطلة مع جميع أفراد القصر الملكى . ثم كافأ رئيس المرتلين زازا معنخ بجميع الأشياء الحسنة .

تلك أعجوبة وقعت فى عهد أبيك ، المغفور له الملك سنفرو ، وهى من صنع رئيس المرتلين ، كاتب الكتب ، زازا معنخ » .

فقال جلالة الملك خوفو : « فليقدم إلى جلالة المغفور له الملك سنفرو ألف رغيف من الخبز ، ومئة جرة من الجعة ، وثور ، وحقيبتان من البخور ؛ وليعط لرئيس المرتلين ، كاتب الكتب ، زازا معنخ ، كعكة ، وجرة من الجعة ، وقطعة كبيرة من اللحم ، وحقيبة من البخور ، لأننى قد شاهدت مثالا من معرفته (السحرية) » .

وتم الأمر كما أمر جلالته تماما .

٣

ثم نهض حارددف[١٣] للحديث ، وقال : « لقد سمعت جلالتك إلى الآن أمثلة من المعرفة (السحرية) كأنما هى أمر لا يستطيع أن يقوم به غير الماضين ، وليس من المعروف أكانوا صادقين —

ولم تســمع بأعمال رجل تحت ظل جلالتك ، وفى عهدك ، ومعروف لديك » .

فقال جلالته : « ماهى ، ياحاردد ف ، يا بنى ؟ » .

حينئذ قال حاردد ف ابن الملك : « يوجد رجل بلدى ، يسمى ددى ، يعيش فى بلدة دد — سنفرو[١٤] . وهو بلدى يبلغ من العمر ١١٠ سنة ، ولا يزال يأكل ٥٠٠ رغيف ، وكتف* ثور ، ويشرب ١٠٠ جرة من الجعة (يوميا) . ويعرف كيف يلصق رأسا مقطوعة ، ويعرف كيف يجعل الأسد يسير خلفه ، وحبله على الأرض ، ويعرف عدد الغرف السرية فى مذبح تحوت[١٥] » .

وكان جلالة الملك خوفو حينئذ دائم البحث عن الغرف السرية فى مذبح تحوت** ، ليتخذ صورة منها لأفقه[١٦] ؛ فقال جلالته : « ستحضره لى أنت ، ياحاردد ف ، يا بنى ، بنفسك » .

ثم أعدت السفن لحاردد ف ابن الملك ، واتجه جنوبا إلى دد — سنفرو . وعندما رست السفن على الشاطئ* سافر برا ، راقدا فى محفة من الأبنوس ، قوائمها من نوع آخر من الخشب ، ومطعمة بالكثير من الذهب . وعندما وصل إلى ددى وضعت المحفة ، ونهض حاردد ف لتحيته . فوجده راقدا على حصيرة على عتبة بيته ، وعلى رأسه عبد يدلكه ، وآخر يدلك رجليه .

---

* عند سليم حسن وارمان : فخذ .

** عند سليم حسن : الأقفال السرية فى معبد تحوت . وعند ارمان : أشياء سرية .

حينئذ قال[١٧] حارددف ابن الملك : « لعل حالك تماثل حالة من لم يضعف من الكبر — وإن كان كبر السن وقت « الاستقرار » ، ووقت التحنيط ، ووقت الدفن — وينام حتى طلوع ضوء النهار ، معافى من المرض . . . تلك التحية للمحترم . لقد أتيت إلى هنا لاستدعائك ، فى عمل لأبى خوفو ، وستأكل طيبات هبات الملك ، وتختار طعام أتباعه ؛ وسيقودك بعد حياة سعيدة إلى آبائك الذين فى المقابر » .

وقال ددى هذا : « فى سلام ، فى سلام يا حارددف ، أيها الابن المحبوب من أبيك الملك ! ليت أباك خوفو يحبك ! وليته يقدم مكانك لتكون بين الكبار . وليت روحك تحارب منتصرة عدوك ! وليت روحك تعرف الطرق المؤدية إلى باب هابسباج[١٨] ! تلك التحية لابن الملك ! » .

حينئذ مد حارددف ابن الملك يده له ، وأنهضه ؛ وتقدم معه نحو الميناء ، معطيا إياه يده . وقال ددى ، « فلأعط قاربا يحضر لى أبنائى مع كتبى ؛ فوضع تحت تصرفه قاربان مع بحارتهما . ولكن ددى ، أتى إلى الشمال فى القارب الذى كان فيه حارددف ابن الملك .

وعندما بلغ مقر الملك دخل حارددف ابن الملك ليخبر جلالة الملك خوفو ؛ وقال : « مولاى الملك — أحياك الإله ، وأغناك ، وعافاك — لقد أحضرت ددى » . فقال جلالته : « اذهب ،

وأحضره لى » . وتقدم جلالته إلى القاعة ذات العمد من الدار العظيمة ؛ وأدخل ددى عليه .

فقال جلالته : « كيف لم أرك ، ياددى ؟ » .

فقال ددى : « من يستدع يأت ، يا مولاى الملك — أحياك الإله ، وأغناك ، وعافاك ! — وعندما استدعيت ، ها أنا ذا قد حضرت » .

فقال جلالته : « أصحيح ما يقال ، إنك تستطيع أن تلصق الرأس التى قد قطعت ؟ » .

فقال ددى : « نعم ، أستطيع ، يامولاى الملك » .

وقال جلالته : « فليؤت لى بسجين من السجن لتنفذ فيه عقوبته » .

فقال ددى : « ليس فى الناس ، يامولاى الملك ! انظر ، فمن المحظور أن تضطلع بمثل هذا العمل نحو « القطيع الشريف[١٩] » .

فأحضرت له إوزة ، مقطوعة الرأس . ووضعت الإوزة فى الجانب الغربى من القاعة ذات العمد ، ورأسها فى الجانب الشرقى من القاعة . ثم تلا ددى رقية سحرية ؛ فنهضت الإوزة ترتجف ، وكذا رأسها . وعندما بلغ كل منهما الآخر ، وقفت الإوزة تصيح . ثم أحضر له نوع آخر من الإوز ، ففعل الأمر نفسه بها . ثم أمر جلالته بإحضار ثور له ، وقد قطعت رأسه على الأرض . فقام ددى برقية سحرية وحينئذ وقف الثور يخور .

روى بعد ذلك أنهم أحضروا له أسدا ؛ فجعله يتبعه ، وحبله ملقى على الأرض؛ ولكن ليس فى المخطوط غير هذه الكلمات الأخيرة ، وقد حذف ما قبلها اهمالا .

* * *

١ — خليفة خليفة خوفو ، وبانى الهرم الثانى فى الجيزة .
٢ — ملك من الأسرة الثالثة ، تاريخ حكمه غير مؤكد .
٣ — حى من أحياء منف .
٤ — انظر ص ٦٨ .
٥ — واضح أنه يريد زوجة وباونر ووصيفتها .
٦ — ١٢ قدم و ٢ بوصة .
٧ — غير معروف من أى مصدر آخر .
٨ — سلف خوفو مباشرة ومؤسس الأسرة الرابعة . وتاريخه حوالى ٢٧٢٠ ق . م
٩ — صنف مجهول .
١٠ — كانت اذن (قائدة) ، تعطى الوقت للمجذفات الأخريات فى صفها من القارب .
١١ — يكون الفيروز فى أحسن أحواله وهو حديث عهد بالمنجم ؛ ويميل الى فقدان بريقه بعد بعض الوقت .
١٢ — اشتهر سنفرو بعد بحسن سلوكه وبساطته ، اشتهاره بكرمه .
١٣ — اشتهر بالحكمة وتأليف كتب فيها . وقبره (فى الجيزة) معروف — ح : واسمه عند سليم حسن : حرداف ، وعند أرمان : ددف حور ، وفى النص الانجليزى : Dedefhas
١٤ — موقع لا يعرف الا أنه جنوبى المكان (لعله منف) الذى تروى فيه هذه الحكايات للملك .
١٥ — اله الحكمة والعلم .
١٦ — أى هرمه ، الذى يحمل اسم (خوفو المنتمى للأفق) .
١٧ — هذه التحيات صعبة على الترجمة .
١٨ — حارس على مدخل العالم السفلى .
١٩ — الجنس البشرى ؛ « قطيع الله » كما يسميه ملك قديم .

المملكة الحديثة

حكاية الأخوين

لا توجد هذه القصة إلا فى مخطوط واحد من البردى المحفوظ فى المتحف البريطانى ، ومسمى باسم مالكته السابقة ، السيدة دوربنى d'Orbiney . وهى كاملة وجيدة الخط ، فى تسع عشرة صفحة من الخط الجميل الحسن ، ولكن تضم عددا من الفقرات الفاسدة . ويرد اسم ولى العهد سيتى منبتاح (الذى صار فيما بعد الملك سيتى الثانى) فى بعض التعليقات القصيرة ؛ ويحدد ذلك تاريخ المخطوط بحوالي سنة ١٢١٠ ق . م .

والقصة خليط عجيب من عناصر متنوعة ، تضم الحكاية الشعبية والأسطورة . ويحمل الأخوان اسمى إلهين[1] ، لأن أنوبو صيغة محلية من أنوبيس ، وباتا إله قديم ؛ وقد عبد كلاهما فى المدينة نفسها فى مصر الوسطى .

وتجد الدراسة المقارنة للأدب الشعبي فى هذه القصة بعض المادة : فقد قيل إن إخراج القلب ووضعه فى مكان أمين (يجعل صاحبه فى حصانة من الأذى مادام القلب سليما) ، وغمس قلب منعزل فى سائل وإحياء صاحبه بعد موته بذلك ، وجدا فى حكايات أمم أخرى . ويشترك وصف باتا فى بعض ملامحه مع الإله أتس Attis الفريجى .

٭ ٭ ٭

يقولون إنه وجد ذات مرة أخوان ، من أب واحد وأم واحدة ، وكان اسم الأكبر أنوبو ، والأصغر باتا . وكان لأنوبو منزل وزوجة ، فعاش معه أخوه الأصغر كابن له . فكان هو الذى يصنع الملابس له ، ويسوق قطعانه إلى الحقول . وكان هو الذى

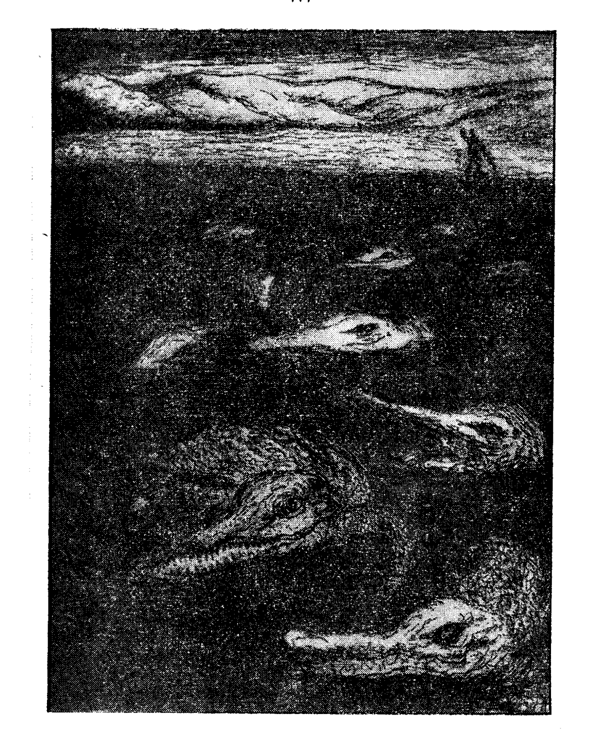
يحرث ويحصد من أجله ، وهو الذى يقوم بجميع الأعمال فى الحقول . وكان الأخ الأصغر عندئذ شابا ماهرا ؛ لامثيل له فى جميع الأرض ، وكانت فيه قدرة إله .

ورعى أخو أنوبو الأصغر قطيعه كعادته اليومية ، وعاد إلى البيت كل مساء محملا بجميع أنواع أعشاب الحقل ، وباللبن والخشب وجميع طيبات الحقل ، ووضعها أمام أخيه الأكبر ، الذى كان جالسا مع زوجته ، وشرب وأكل ، وخرج لينام فى حظيرته بين قطيعه ، وحيدا .

وعندما طلع الفجر وبزغ يوم جديد ، حلب الأخ الأصغر الغذاء الذى طهى ووضعه أمام أخيه الأكبر ، الذى أعطاه ذخيرة للحقول ، وجمع قطيعه ليأخذه للرعى فى الحقول ، وأخرجه ، فقالت له : « عشب المكان الفلانى جيد » ، وفهم كل ما قالت وأخذها إلى المكان الجيد ذى العشب الذى ترغب فيه . وصار القطيع الذى يرعاه حسنا كل الحسن . وكثر نتاجها كثرة هائلة .

وفى فصل الحرث قال له أخوه الأكبر: «جهز لنا زوجا حسنا من الثيران للحرث ، لأن الأرض قد برزت وصلحت للحرث . وتعال إلى الحقل مع بذور الحنطة ، لأننا سنشغل غدا بالحرث — كذا قال له » . ففعل أخوه الأصغر كما أمره أخوه الأكبر تماما .

فعندما طلع الفجر وجاء يوم آخر ، ذهبا إلى الحقل مع بذور



الحنطة ، واشتغلا بالحرث ، وكانا جد سعيدين بالعمل فى مبتدأ اشتغالهما .

وبعد انقضاء بعض الوقت كانا فى الحقل ، ونفدت منهما البذور ، فبعث أنوبو أخاه الأصغر ، قائلا : « اذهب وأحضر لنا بذورا من القرية » . ووجد باتا زوجة أخيه الأكبر جالسة ترجل شعرها ؛ وقال لها : « انهضى وأعطينى بعض البذور ، لأرجع إلى الحقل ، لأن أخى الأكبر منتظرنى ، فلا تجعلينى أنتظر » . فقالت له : « اذهب وافتح المخزن وخذ ما تريد ، ولا تجعلنى أقطع تمشيط شعرى » .

فدخل الشاب حظيرته ، وأخرج وعاء كبيرا ، راغبا فى أن يأخذ قدرا كبيرا من البذور ، وحمل بذور الشعير والقمح وخرج بها .

وقالت له : « ما قدر ما على كتفك؟ » فقال لها « إنها ثلاثة أحمال من القمح وحملان من الشعير ، فتلك خمسة كاملة ، على كتفى » كذا أخبرها . فحادثته قائلة : « إن فيك لبأسا عظيما ، لأننى أرى أعمالك كل يوم » . ورغبت أن تعرفه كما يعرف الذكر . ونهضت وأمسكت به ، وقالت له : « تعال ، فلنقض ساعة نائمين . وستجد لذتك — وحينئذ سأصنع لك ملابس جميلة » .

وصار الشاب كفهد من مصر الجنوبية بسبب الغضب العظيم من هول ما نطقت به من شر . وتملكها خوف شديد . فحادثها قائلا : « ولكن تأملى ، إنك بمثابة أم لى ، وزوجك بمثابة أب لى ،

وهو الذى ربانى لكونه أكبرمنى . فما هذه الجريمة الشنعاء التى ذكرتها لى ؟ لا تعودى إلى ذكرها ثانية ، ولن أخبر بها أحدا » .
ورفع حمله وابتعد إلى الحقل . وبلغ أخاه الأكبر ، وعادا إلى شغلهما .

وبعد مدة ، فى المساء ، عاد أخوه الأكبر إلى البيت ، على حين رعى باتا قطيعه ، وحمل نفسه جميع أنواع الأشياء من الحقل ، وعاد بقطيعه يسير أمامه ليضعه فى حظيرته فى القرية ليلا .

وكانت زوجة أخيه الأكبر حينئذ خائفة بسبب ما فاهت به ؛ فأحضرت دهنا وشحما(٢) ، وتظاهرت بأنها قد ضربت ، قاصدة أن تقول لزوجها : « إنه أخوك الأصغر الذى ضربنى » .

وعاد زوجها فى المساء ، كعادته اليومية ، وبلغ بيته ، ووجد زوجته راقدة تتظاهر بالتوجع ؛ ولم تصب ماء على يديه كعادته ، ولا أضاءت المصباح قبل أن يأتى ، وكان بيته فى ظلام ، وهى راقدة تتقيأ . فقال زوجها لها : « من كلمك ؟ » حينئذ قالت له : « لا أحد كلمنى غير أخيك الأصغر . عندما أتى لأخذ البذور لك ووجدنى جالسة وحيدة قال لى : « تعالى ، فلنقض ساعة نائمين . وتحلى بشعرك المستعار » ، قال لى ، فلم أصغ إليه . وقلت له : « ألست أمك ، وأليس أخوك كأب لك » . فخاف ، وضربنى ليمنعنى من إخبارك بالأمر . والآن إذا سمحت له بالعيش فسأقتل نفسى . تأمل ، عندما يعود ، لا تتحدث إليه ، لأنى إذا ما أفضيت بهذا الاتهام الشنيع (أمامه) أحاله إهانة » .

وصار أخوه الأكبر كفهد من مصر الجنوبية (من الغضب)، وشحذ رمحه، وأمسك به فى يده، ووقف وراء باب حظيرته ليقتل أخاه الأصغر عندما يعود فى المساء ليدخل قطيعه فى الحظيرة.

والآن عندما غربت الشمس حمل باتا نفسه بجميع أصناف العشب من الحقل، كعادته اليومية، وعاد؛ ودخلت البقرة الأولى الحظيرة، وقالت لراعيها: «تأمل، إن أخاك الأكبر واقف أمامك بحربته ليقتلك. فاهرب أمامه». وفهم ماقالته بقرته المتقدمة؛ ودخلت التالية وقالت الأمر نفسه. فنظر تحت باب حظيرته، ورأى قدمى أخيه الأكبر فى وقفته وراء الباب بحربته فى يده. ووضع حمله على الأرض وترك نفسه لفرار سريع. وعدا أخوه الأكبر خلفه بحربته.

وصلى أخوه الأصغر لرع حراختى[٤]، قائلا: «إلهى الطيب، إنك أنت الذى تقضى بين الظالم والعادل». حينئذ سمع رع كل ظلامته، وخلق ماء عظيما، مملوءا بالتماسيح، بينه وبين أخيه الأكبر، ووجد أحدهما نفسه فى جانب، والآخر فى الجانب الآخر. فضرب الأخ الأكبر على يده[٥] مرتين بسبب عدم قتله. وناداه الأخ الأصغر من الجانب الآخر، قائلا: «ابق هنا إلى الفجر، وعندما تطلع الشمس نتحاكم أنا وأنت أمامها، وستسلم الشرير إلى الخير؛ لأننى لن أعيش معك ثانية، ولن أكون فى مكان تكون فيه. وإنما سأذهب إلى وادى الأرز[٦]».

والآن عندما انبثق الفجر وأتى يوم آخر ، أشرق رع حراختى ، ورأى أحدهما الآخر . وتحدث الفتى مع أخيه الأكبر ، قائلا : « لم تبعتنى لتقتلنى خطأ ، قبل أن تسمع ما لدى من قول ؟ لأننى حقا أخوك الأصغر ، وأنت كوالد لى ، وزوجتك كأم لى ؛ أليس الأمر كذلك ؟ والآن عندما بعثتنى لأحضر البذور لنا ، قالت لى زوجتك : « تعال ، فلنقض ساعة راقدين » ولكن تأمل ، لقد عكست الأمر لك » .

وأخبره بكل ما وقع بينه وبين زوجته ؛ وأقسم برع حراختى ، قائلا : « لقد كان مجيئك بحربة لتقتلنى خطأ بأمر من فاجرة » . وأخذ سكينا مصنوعة من القصب وقطع عضوه الخاص ، وألقاه فى الماء ، فابتلعته سمكة شبوط . وأغمى عليه وضعف . فرثى له أخوه الأكبر أشد الرثاء ، ووقف يبكى بصوت عال من أجله ؛ ولم يقدر أن يعبر إلى حيث كان أخوه الأصغر ، بسبب التماسيح .

وناداه أخوه الأصغر ، قائلا : « برغم أنك تذكر أمرا واحدا سيئا ، أفلا تذكر أمرا واحدا حسنا ، أو شيئا واحدا عملته من أجلك ؟ اذهب إلى بيتك ، واجمع قطيعك ، لأننى لن أبقى فى أى مكان تكون فيه . سأذهب إلى وادى الأرز . والآن ما ستفعله لى أن تأتى لمساعدتى ، إن عرفت أن حدثا سيئا قد ألم بى ، لأننى سأنتزع قلبى ، وأضعه على قمة زهرة الأرز . فإن قطعت شجرة الأرز ، ووقع (قلبى) إلى الأرض ، وأتيت للبحث عنه ، وقضيت فى البحث

عنه حتى سبع سنوات ، فلا تجعل همتك تفتر . وإن وجدته ، ووضعته فى جرة من الماء البارد ، حينئذ سأحيا ، وسأنتقم ممن أساء إلى . وستعرف أن مكروها ألم بى ، إذا ما أعطيت فى يدك قدح من الجعة فأزبد . حينئذ لا تتأخر . وحقق أن يحدث ذلك لك » .

وابتعد نحو وادى الأرز ؛ ورجع أخوه الأكبر إلى بيته ويده على رأسه المعفرة بالتراب(٧). ثم وصل إلى بيته ، وقتل زوجته ، وألقى بها إلى الكلاب . وعاش يبكى أخاه الأصغر .

وبعد انقضاء بعض الوقت كان باتا هذا فى وادى الأرز ، ولا أحد معه ؛ وقضى أيامه يصطاد وحوش الصحراء ، ويعود فى المساء لينام تحت شجرة الأرز ، التى كان قلبه على قمتها .

والآن بعد مدة بنى لنفسه بيديه قصرا فى وادى الأرز ، مليئا بجميع الطيبات ، ليتخذه سكنا له . ثم خرج من قصره ، فقابل تاسوع الآلهة(٨) ، يسير وينظم شئون العالم كله . فقال التاسوع لواحد منهم أن يقول له : « مرحبا بك يا باتا ، يا ثور التاسوع ، أوحيد أنت هنا ، أتركت بلدتك ، فرارا من زوجة أنوبو أخيك الأكبر ؟ تأمل ، لقد قتل زوجته ، وانتقم لك منه من أجل جميع الأذى الذى حل بك ! » ورثوا له أشد الرثاء . وقال رع حراختى لخنوم : « هيئ عروسا لباتا ، حتى لا يسكن وحيدا » .

فصنع له خنوم عروسا ، أجمل جسدا من أية امرأة فى العالم

كله ؛ ففيها جوهر كل إله . وأتت بقرات هاتور السبع[٩] لرؤيتها ؛ وقلن فى صوت واحد : « إنها ستموت ميتة شنيعة » .

وأحبها حبا شديدا ؛ وسكنت فى منزله ، وقضى أيامه يصطاد وحوش الصحراء ، ويحضرها ويضعها أمامها . وقال لها : « لا تخرجى وإلا اختطفك البحر ؛ لأننى لن أستطيع إنقاذك منه ، لأننى امرأة مثلك . والآن يرقد قلبى على قمة شجرة الأرز ، فإن وجده أى شخص آخر قاتلته » . ووصف قلبه لها بكل تفاصيله .

والآن بعد مدة خرج باتا للصيد ، كعادته اليومية . فخرجت الفتاة لتتمشى تحت شجرة الأرز ، التى كانت بجوار منزلها . فرآها البحر ، وتدافعت أمواجه خلفها ، فهربت أمامه ودخلت منزلها . ونادى البحر شجرة الأرز ، قائلا : « أمسكى بها من أجلى » . فأحضرت شجرة الأرز خصلة من شعرها . فجلبها البحر إلى مصر ، ووضعها فى موضع غسالى فرعون . وتسربت رائحة خصلة الشعر إلى ملابس فرعون ؛ فتشاجر خدم فرعون مع غسالى فرعون ، قائلين : « إن فى ملابس فرعون رائحة دهان » . وتشاجروا معهم كل يوم ، ولم يدروا ماذا يفعلون .

وسار رئيس غسالى فرعون على ضفة النهر ، وكان عظيم البؤس بسبب الشجار معه كل يوم . ووقف ساكنا وتوقف فى الصحراء تجاه خصلة الشعر ، التى كانت فى الماء ؛ وجعل رجلا يهبط ، فأحضرها له ؛ فوجد رائحتها شديدة العذوبة ، فأخذها إلى

فرعون . فأحضروا كتبة فرعون وعلماءه ؛ وقالوا له : « هذه الخصلة من الشعر لابنة لرع حراختى فيها جوهر كل إله . والآن ، فهى هدية لك من قطر آخر . فابعث الرسل فى كل بلد أجنبية للبحث عنها ؛ ولكن أرسل مع الرسول الذاهب إلى وادى الأرز عدة رجال لإحضارها[١٠] » . حينئذ قال جلالته : « إن ما قلتم حسن كل الحسن » ؛ وأرسل الرسل .

والآن بعد هذا بمدة رجع من ذهب إلى الخارج ليقدم تقريره إلى جلالته ؛ ولكن لم يعد من ذهبوا إلى وادى الأرز ، لأن باتا كان قد قتلهم — ولكنه كف عن واحد ليقدم تقريرا لجلالته . فأرسل جلالته كثيرا من المشاة ، والفرسان أيضا ، لإحضارها . وكان بينهم امرأة أعطيت فى يدها جميع الحلى الجميلة للنساء . وعادت المرأة بها إلى مصر ، وعم الفرح فى البلاد بسببها . وأحبها جلالته أشد الحب ، ومنحها رتبة المحظية الكبيرة .

وحادثها ليجعلها تصف زوجها ؛ فقالت لجلالته : « اجتث شجرة الأرز وحطمها » . فأرسل المشاة مع أسلحتهم لاجتثاث شجرة الأرز ، فبلغوها وقطعوا الزهرة التى كان قلب باتا عليها ، فهوى ميتا فى اللحظة نفسها .

والآن عندما بزغ الفجر وأتى يوم آخر ، وكانت شجرة الأرز قد اقتطعت ، دخل أنوبو ، الأخ الأكبر لباتا ، منزله وجلس ليغسل يديه . وأعطى له قدح من الجعة ، فأزبد ؛ وأعطى آخر

من النبيذ ، فحمض . فحمل عصاه ونعله ، وملابسه وأسلحته أيضا ، وابتدأ الرحلة إلى وادى الأرز .

ودخل قصر أخيه الأصغر ، ووجده راقدا على متكئه ، ميتا . وبكى عندما رأى أخاه الأصغر راقدا ميتا ، وذهب ليبحث عن قلبه تحت شجرة الأرز التى كان يذهب أخوه الأصغر لينام تحتها فى المساء . وقضى ثلاث سنوات فى البحث عنها ، دون أن يجدها . وعندما دخل فى السنة الرابعة ، اشتاق إلى العودة إلى مصر ، وقال : « سأذهب غدا » — كذا قال فى قلبه .

والآن عندما طلع الفجر وأتى يوم آخر ، سار تحت شجرة الأرز وقضى اليوم فى البحث عن القلب . وعاد فى المساء ، وقضى وقتا قصيرا فى البحث عنه ثانية . فوجد ثمرة ، ورجع بها . وكانت هى الآن قلب أخيه الأصغر . وأحضر جرة من الماء البارد وألقاها فيها ، وجلس كعادته اليومية .

والآن عندما جاء الليل امتص قلب باتا الماء ، وارتجف جسد باتا كله ، وبغتة نظر إلى أخيه الأكبر ، وقلبه فى الجرة . فأخذ أنوبو ، أخوه الأكبر ، جرة الماء البارد التى كان قلب أخيه الأصغر فيها ، وقد شرب ماءها ، وثبت القلب فى مكانه ، فصار كما كان . وعانق كل منهما الآخر ، وحادث كل رفيقه . وقال باتا لأخيه الأكبر : « تأمل ، سأصير ثورا عظيما ، ذا الشيات الجميلة جميعا ، ثورا لن تعرف طبيعته ؛ وستقعد على ظهرى إلى أن تشرق

الشمس ، ونكون فى الموضع الذى فيه زوجتى ، كى أنتقم . وستأخذنى إلى المكان الذى فيه الملك ، لأن جميع الطيبات ستصنع من أجلك ، وستكافأ بالفضة والذهب لأخذى إلى فرعون ، لأننى سأصير أعجوبة عظيمة ، وسيفرحون بى فى جميع البلاد ، وستبتعد إلى قريتك » .

والآن عندما طلع الفجر وجاء يوم آخر ، اتخذ حينئذ باتا الصورة التى تحدث مع أخيه بشأنها ، وجلس أنوبو ، أخوه الأكبر ، على ظهره إلى الفجر ، ووصل إلى المكان الذى كان فيه الملك . وأخبر جلالته به ، ورآه ، وسر كل السرور به . وأقام حفلا كبيرا بسببه ، قائلا : « إنها أعجوبة عظيمة قد وقعت » ؛ وفرحوا به فى الأرض كلها . وحمله الملك بالفضة والذهب جائزة لأخيه الأكبر ، الذى أقام فى قريته ؛ ومنحه الملك كثيرا من الناس والأملاك ، وأحبه فرعون كل الحب ، أكثر من أى شخص آخر على الأرض كلها .

والآن بعد هذا بمدة دخل الثور غرفة الطعام ، ووقف حيث كانت المحظية ؛ فحادثها قائلا : « تأملى ، ها أنا ذا لا زلت حيا » . فقالت له : « من أنت ، أرجوك ؟ » فقال لها : « أنا باتا . إننى أعرف أنك عندما أوعزت إلى فرعون باجتثاث الشجرة ، إنما كان ذلك من أجلى ، كيلا أعيش ؛ ولكن تأملى ، ها أناذا لا أزال حيا ، فى صورة ثور » . واشتد الفزع بالمحظية إذ سمعت ما أعلنه زوجها . وخرج من غرفة الطعام .

وجلس جلالته يقضى عطلة معها ، وصبت الخمر لجلالته ؛ وكان الملك عظيم السعادة معها . فقالت لجلالته : « أقسم لى بالإله ، قائلا : « سأطيع ماتقول المحبوبة من أجلها » ؛ فأجابها إلى ماطلبت . فقالت له : « ائذن لى أن آكل بعض كبد هذا الثور ، فإنه لا نفع منه لنا » . وانزعج الملك أشد الانزعاج لما قالت ، وأسف فرعون أشد الأسف من أجله .

والآن عندما طلع الفجر وأتى يوم آخر ، أعلن الملك حفلة عظيمة يضحى فيها بالثور ، وبعث الملك أحد رؤساء القصابين لنحر الذبح . ثم نحر بعد ذلك ؛ وبينما كان محمولا على أكتاف الرجال هز رقبته ، وأسقط قطرتين من الدم إلى جوار منكبى باب جلالته — سقطت إحداهما على جانب من الباب الأعظم لفرعون ، والأخرى على الجانب الآخر — فصارتا شجرتى سنط كبيرتين ، كل منهما شديدة الجمال . وذهبوا لإخبار جلالته : « لقد نمت شجرتا سنط كبيرتان فى الليل ، إلى جوار الباب الأعظم لجلالته ، أعجوبة عظيمة ! » وفرحوا بهما فى كل البلاد ، وقدم الملك القرابين لهما .

والآن بعد هذا بمدة ظهر جلالته لدى النافذة اللازوردية ، وفى عنقه طاقة من جميع أنواع الزهر ؛ وكان فى عربة ذهبية ، وخرج من القصر لرؤية شجرتى السنط . وخرجت المحظية مع الخيل ، تتبع فرعون . وجلس جلالته تحت إحدى شجرتى

السنط ، والمحظية تحت الأخرى . فحادث باتا زوجته ، قائلا : « أيتها الخائنة ، إنى باتا ، وأنا حى على الرغم منك ! إنى أعرف إغواءك فرعون لقطع شجرة الأرز بسببى ، وقد صرت ثورا فنحرته » .

والآن بعد هذا بمدة وقفت المحظية تصب الخمر لجلالته ، وسعد الملك معها . فقالت لجلالته : « أقسم لى بالإله ، قائلا : « سأجيب ما تطلب المحظية منى من أجلها » ، كذا تقول . فأجابها إلى كل ما طلبت . فقالت : « اجتث شجرتى السنط هاتين ، واجعلهما فى أثاث جميل ! » . وأطاع الملك كل ما قالت . وبعد وقت قصير أرسل جلالته النجارين المهرة ، واجتثت شجرتا السنط . وراقبت زوجة الملك ، المحظية ، القطع . فطارت شظية ودخلت فم المحظية ، فابتلعتها ، فحملت لتوها . وفعل الملك كل ما تخيلت بهما (الشجرتين) .

والآن بعد هذا بمدة وضعت طفلا — رجلا ، فذهبوا لإخبار جلالته : « لقد ولد لك طفل — رجل » ؛ وأحضر له ، ومنح مربية وتابعات ، وفرح الناس به فى جميع البلاد . وجلس الملك يقضى عطلة ، والشعب فى أفراح . وأحبه جلالته حالا ، حبا جما ، ونصبه نائب ملك على النوبة .

والآن بعد هذا بمدة جعله جلالته أمير التاج [ولى عهد] للبلاد كلها . والآن بعد هذا بمدة ، عندما قضى عدة سنوات أمير

تاج للبلاد كلها ، طار جلالته إلى السماء[١١] . وقال الملك (الجديد) : « فليؤت إلى بعظماء موظفى الملكيين ، لأخبرهم بكل ما قد حدث لى » . وأحضرت له زوجته ، وتحاكم هو وهى أمامهم ، فاتفقوا معه[١٢] : واستدعى أخاه الأكبر ، فجعله أمير تاج للبلاد كلها . وقضى ثلاثين عاما ملكا لمصر . ثم انتقل إلى الحياة[١١] . وجلس أخوه الأكبر فى مكانه فى يوم « القرار[١٣] » .

❋ ❋ ❋

انتهت فى سعادة وسلام ، لسرة كاتب خزانة فرعون كجبو ، وحورى الكاتب ، ومرموبى الكاتب . صنعها انانا الكاتب ، مالك هذا الكاتب . وليكن تحوت خصم من يذكر هذا الكتاب بسوء !

❋ ❋ ❋

١ — تبين كتابة الأسماء أن الاشارة الى الآلهة ، لا الى رجال مسمين بأسمائها .
٢ — بزغت بعد الفيضان السنوى .
٣ — لماذا ؟ لاستخدامه مرهما ؟ مقيئا (انظر بعد) ؟
٤ — اله شمسى مركب ، يجمع بين رع (الشمس) وحراخت (حورالأفق) .
٥ — تعبير عن خيبة الأمل أو الفشل .
٦ — عرف الآن أنه موضع حقيقى ، فى لبنان .
٧ — علامة النحيب .
٨ — مجموعة آلهة من أربعة أجيال ، أصلها فى هليوبوليس وتتألف من اله شمسى (رع حراختى هنا) على رأسها ، مع شو ، وتفينت ، وجيب ، ونوت ، وأوزيريس ، وايزيس ، وسيث ، ونفتيس . ولكن عدد وتأليف هذا المسمى بالتاسوع مختلف ، ولذلك لا نحتاج الى الدهشة حين نجد بينهم خنوم ، الذى يشكل البشرية كما يشكل صانع الخزف الجرار على عجلة .
٩ — تخيلت أنها تأتى الى الأطفال المهمين الحديثى الولادة وتتنبأ بطريقة موتهم .
١٠ — يبدو أن المعنى ، أنهم كانوا يظنون أن المرجح أن توجد المرأة فى وادى الأرز ، وان احتمل وجودها فى أى قطر أجنبى .
١١ — توفى .
١٢ — وهكذا حكموا عليها — بالموت ، ولا شك .
١٣ — انظر ص ٦٧ ، التعليقة ٦٩ .

اللغة الديموتيقية

قصة خعمواست

نعرف هذه القصة بصفة رئيسية من مخطوط ناقص على بردية ، يقال إنها عثر عليها فى طيبة ، ومحفوظة الآن فى متحف القاهرة ؛ وهى من عصر البطالمة ، وربما من القرن الثالث ق . م . ، ومدونة بالخط الديموتيقى . وكان عددها أصلا ست صفحات ، ولكن تمزقت الصفحتان الأوليان ، ومعهما بداية السطور فى الصفحة الثالثة ، وضاعت . وتوجد أيضا قطعة من هذه القصة أو أخرى متصلة بها أوثق اتصال ؛ وربما كانت من جزء مفقود من القصة فى مخطوط آخر ، ولكنها لم تستخدم هنا إذ أنهـــا لا تعطينا أية قصة متصلة .

وبطل القصة رجل تاريخى : الأمير خعمواست* ، أحد كبار أبناء الملك العظيم رمسيس الثانى ، البالغ عددهم ١١١+×** ، وأشهرهم . وقد اضطلع بنصيب هام فى حداثته فى حملات أبيه فى سورية والنوبة . ثم عين فى مركز من أعلى المراكز الدينية فى البلاد ، رئيس كهنة بتاح إله منف ، الذى يحمل لقب الكاهن « سم » (لقب قديم جداً لا نعرف معناه) ، فأثرى بواسطته ، ويبدوا أنه كان من أبناء الملك المقربين ، فأرسله مندوبا عنه فى كثير من الاحتفالات الدينية والرسمية منذ العام الثالث عشر من عهده على وجه التقريب . وأبدى خعمواست إخلاصا عظيما لعبادة العجل

---

* كذا هو عند سليم حسن (مصرالقديمة ٦ : ٤٤١) ، وعند عبدالمنعم أبوبكر : خع اماواس (مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ٧٤)

** يقال ان عدد أولاده مئتان ، عرف منهم ١١١ ولدا ، و ٥٩ بنتا .

أبيس المقدس فى منف ، وواضح أنه المسئول عن تشييد جزء من مدافن أبيس فى سقارة المعرفة بالسرابيوم ، حيث وجدت تقارير عنه . وتوفى قبل والده ، الذى بقى فى الحكم سبعة وستين سنة (حوالى ١٢٩٨ — ١٢٣١ ق . م .) ، ولابد أنه كان يناهز المئة ، إن لم يكن بلغها فعلا ، عند وفاته ؛ توفى قبله بقريب من اثنتى عشرة سنة . ولدينا آثار مادية كثيرة باقية من خمواست : قبره بجوار الهرم الأكبر ، ومومياؤه فى القاهرة ، وتمثال جيد فى المتحف البريطانى ، وكثير من المدونات والأشياء الصغيرة المتصلة به ، منها رسالة موجهة إليه تقرر بعض خدماته . وكان هناك حديث مأثور أنه عثر على تعويذة سحرية قوية المفعول « بجوار رأس مومياء فى غرب منف (سقارة) » ، وكان فى العصور المتأخرة ، كما سنرى ، لايزال مشهورا بولعه بالسحر . ولا توجد شواهد معاصرة على حدوث أي حادث مذكور فى القصة ، أو وجود أى شخص منها غير خمواست وأبيه ، وقد نكمل الجزء الناقص منها تكملة تخطيطية على النحو التالى :

* * *

كان خعمواست بن سرماعت رع رمسيس (الثانى) الفرعون ، والكاهن الأعظم (سم) للإله بتاح ، « كاتباً طيباً » (أى ساحراً) وعلامة ، ومحباً للكتابات القديمة . واتفق أن علم بوجود كتاب عجيب فى السحر دونه تحوت (إله الحكمة والعلم) بيده ، فى قبر الأمير نفركبتاح (بن الفرعون مرنبتاح) الذى كان يعيش منذ وقت طويل ودفن فى مقابر منف الفسيحة . واستطاع خعمواست بوسيلة ما أن يعثر على هذا القبر ، فدخله ، مع أخيه غير الشقيق انْهارِرُو Inharerow . فوجد شبح نفركبتاح ، وشبح

زوجته أحويرت Ahwëre وطفلهما مرياب ، وإن كان هذان قد دفنا بعيدا فى قفط . وكان الكتاب بين نفركبتاح وأحويرت ، يلقى على القبر ضوءا فى قوة ضوء الشمس . فطلب خعمواست الكتاب ؛ ولكنهما أبيا أن يعطياه إياه ، قائلين إنهما قدما حياتهما ثمنا له . ولتثبيط همته ، روت أحويرت قصتهما ، التى يمكن أن نجمل استهلالها الضائع على النحو التالى :

« اتفق فى أيام أبى ، الفرعون مرنبتاح ، أن الفرعون طعن فى السن ، ولم يكن لديه أولاد غيرى وغير نفركبتاح ، الذى بجوارى . واشتدت الرغبة بفرعون أن يكون لأولاده أولاد ، وأمر فى لحظة معينة أن تقام حفلة بين يديه بعد بضعة أيام ، وأن يدعى أبناء القواد وبناتهم ، ليختار فرعون لى زوجا من أولاد القواد ولأخى نفركبتاح زوجة من بناتهم ، ليزداد عدد أفراد العائلة . فأخبرنا بخطة فرعون خادم مسن ، فى القصر ، كان فرعون يحبه ؛ فاغتممنا ، وعظم خوفنا ، لأننا كان الواحد منا يحمل للآخر أعظم الحب . فذهبت إلى الخادم ، وقلت له : « أخبر الملك ، أن يزوجنى ونفركبتاح الواحد من الآخر ، وألا يفرق بيننا ؛ لأن كلامنا يحمل للآخر أعظم الحب » ومثل خادم فرعون أمامه ، وقال : « مولاى — منحك الإله عمراً كعمر الشمس — ألا يجدر بفرعون أن يتبع سنة آبائه ويزوج نفركبتاح من أحويرت ، وأن يولد الأطفال فى بيت فرعون ؟ إذ أن نفركبتاح وأحويرت يحمل منهما كل للآخر

أعظم الحب » . وصمت فرعون ، واغتم . فقـال الخادم أمامه : « ماذا يزعجك يا مولاى ؟ » . فقال فرعون للخادم :

« إنك أنت الذى أسأت إلى . إن اتفق أن لم يكن لى غير ولدين ، أفيقضى القـانون أن أزوج أحدهما من الآخر ؟ إننى سأزوج نفركبتاح من ابنة قائد ، وأزوج أحويرت من ابن قائد آخر فيزداد أفراد أسرتنا » .

وعندما آن أوان إقامة الحفلة بين يدى فرعون ؛ استدعيت وأخذت إلى تلك الحفلة . وكنت شديدة الحزن ؛ على غير ما اعتدت من المرح .

فقال فرعون لى : « أحويرت ، أأنت التى أرسلت لى تلك الـكلمات الحمقاء : زوجنى من نفركبتاح ، أخى الأكبر ؟ » .

قلت له : « زوجنى من ابن قائد ، وزوجه من بنت قائد آخر ليزداد أفراد أسرتنا » ، وضحكت . وضحك فرعون وتملكه السرور العظيم .

قال فرعون لخادم منزل الملك : « لتؤخذ أحويرت الليلة إلى منزل نفركبتاح ؛ وليؤخذ معها كل أنواع الأشياء الجميلة » ، وأخذت زوجة إلى منزل نفركبتاح فى الليلة نفسها . وبعث فرعون إلى هدية من الفضة والذهب ؛ وأرسل إلى جميع أفراد بيت فرعون الهدايا . وقضى نفركبتاح عطلة معى ، وسلى كل أفراد بيت فرعون . ونام معى فى تلك الليلة ، وسر منى . ولم يتشاجر أبداً معى ؛ وإنما لبى كل منا رغبة الآخر .

وعندما آن أوان تطهيرى ، لم أتطهر ثانية . فأخبر فرعون بذلك ، فناله عظيم السرور . فأمر بإخراج كثير من الأشياء من الخزانة من أجلى ؛ وبعث إلى هدية جميلة جداً من الفضة والذهب والكتان الملوكى .

وحين حان وقت حملى ، حملت بهذا الصبى الذى أمامك ، والذى سمى مرياب . وأعد لدراسة الكتابة فى بيت الحياة [٢] .

ولم يكن لأخى نفركبتاح شغل على الأرض غير السير فى مدافن منف ، وقراءة المكتوب فى مقابر الفراعنة ، وعلى شواهد مقابر[٣] كتبة بيت الحياة ، والمكتوب على الآثار الأخرى ، لأنه كان شديد الشغف بالكتابة .

ثم حضر وقت موكب الإله بتاح ، فدخل نفركبتاح المعبد ، للعبادة . واتفق أن رآه كاهن عجوز ، وهو يسير خلف الموكب ، قارئاً المكتوب على أضرحة الآلهة ، وضحك .

قال له نفركبتاح : « لم تضحك منى ؟ »

قال : « لست أضحك منك ؛ وإنما أضحك لأنك تقرأ ما لا يهم إنسانا على الأرض . أما إذا كنت ترغب فى قراءة الكتابات ، فاحضر إلىّ لأدعك تؤخذ إلى الموضع الذى يوجد فيه ذلك الكتاب الذى دونه تحوت بيده عندما هبط متبعا الآلهة الأخرى[٤] وهو يحتوى على رقيتين . إن رددت أولاهما ، سحرت السماء ، والأرض ، والعالم السفلى ، والتلال ، والمياه ، وفهمت منطق جميع

الطير فى السماء ، والزواحف ، ورأيت سمك النهر ، مع قوة قدسية مستقرة فى الماء عليه[٥] . وإن رددت الثانية ، سواء كنت فى الغرب[٦] أو على الأرض ثانية فى صورتك المعتادة ، رأيت إله الشمس مشرقا فى السماء مع آلهته التسع ، والقمر بازغا على هيئته ».

قال نفركبتاح له ، « أرجو أن تخبرنى فى حياتك ، بأى شىء طيب ترغبه ، فأحققه لك ، إن أرسلتنى إلى الموضع الذى يوجد فيه هذا الكتاب ! »

قال الكاهن لنفركبتاح ، « إن رغبت أن ترسل إلى موضع هذا الكتاب ، يجب أن تعطينى عشرين مثقالا من الفضة لأدخرها لإجراءات دفنى ، ويجب أن تمنحنى مكافأة كاهنين ، دون نقصان » .

فاستدعى نفركبتاح خادما ، وأعطى الكاهن عشرين مثقالا من الفضة ؛ وأضاف المكافئتين ، ومنح الكاهن كل ذلك دون نقصان .

فقال الكاهن لنفركبتاح ، « الكتاب المذكور فى وسط مياه قفط[٧] فى صندوق حديدى ؛ وفى الصندوق الحديدى صندوق برنزى ؛ وفى الصندوق البرنزى صندوق من خشب العرعر ؛ وفى الصندوق المتخذ من خشب العرعر صندوق عاجى وأبنوسى[٨] وفى الصندوق العاجى الأبنوسى صندوق فضى ؛ وفى الصندوق الفضى صندوق ذهبى ، فيه الكتاب وحول الصندوق الذى

فيه الكتاب بريدان[٩] من الثعابين والعقارب وجميع الزواحف ؛ وحول هذا الصندوق نفسه ثعبان خالد » .

وعندما فرغ الكاهن من كلامه لم يدر نفركبتاح أين ذهب من وجه الأرض[١٠] . فغادر المعبد ، وأخبرني بكل ما حدث له . وقال لي ، « سأذهب إلى قفط وأعود بهذا الكتاب ، مستعجلا إلى الشمال » .

فسببت الكاهن ، قائلة : « لعنة نيت[١١] عليك ! لم أخبرته بكل هذه الأمور المشئومة ؟ لقد سببت لي المشاجرة ، وجلبت لي المنازعة . وقد وجدت ريف طيبة قاسيا[١٢] » .

وبذلت جهدي لمنع نفركبتاح من الذهاب إلى قفط : ولكنه لم يصغ إلي . ومثل أمام فرعون ؛ وقص أمامه كل ما أخبره به الكاهن . فقال له فرعون : « ماذا تريد » . قال نفركبتاح : « فلتُعطَ لي السفينة الملكية وأدواتها ؛ فسآخذ أحورت وابنها مرياب معي إلى الجنوب ، وسأحضر هذا الكتاب بدون تأخير » .

فأعطى السفينة الملكية ومعداتها . وركبناها وأبحرنا ووصلنا إلى قفط . وأعلن كهنة إيزيس في قفط ورئيس كهنة إيزيس بقدمنا فجاءوا لمقابلتنا ؛ وأسرعوا لمقابلة نفركبتاح ، وجاءت أزواجهن لمقـــابلتي . فصعدنا من الشاطىء ، ودخلنا معبد إيزيس وحربوقراط[١٣] . وبعث نفركبتاح من يشتري ثورا ، وإوزه ،

وخمراً ؛ وأحرق القرابين وسكب الخمر أمام إيزيس قفط وحربوقراط . وأخذونا إلى بيت عظيم الجمال ، ملىء بجميع الأشياء الحسنة .

وقضى نفركبتاح أربعة أيام فى عطلة مع كهنة إيزيس قفط ، وزوجات كهنة إيزيس فى عطلة معى . وفى صبيحة اليوم الخامس استحضر نفركبتاح كثيراً من الشمع النقى ، وأعد قاربا ، وملأه بالمجذفين والبحارة ؛ ورقاهم ، وأحياهم ، ووهبهم الأنفاس ، ووضعهم على الماء . وملأ السفينة الملكية بالرمل [١٤] . وربطها بالقارب الآخر . وركب ، وجلست أنا نفسى على ماء قفط ، قائلة : « سأرى ما يحل بك » .

وقال للمجذفين : « جذفوا إلى موضع ذلك الكتاب » . فجذفوا ليلا ونهارا ، ثم بلغه ، فى ثلاثة أيام . فألقى الرمل قدامه ، وتكونت ثغرة فى النهر . ثم وجد بريدين من الثعابين والعقارب ، وجميع أنواع الزواحف حول الموضع الذى فيه الكتاب . ثم وجد ثعبانا خالدا حول هذا الصندوق نفسه . فردد رقيتين على المرحلتين من الحيات والعقارب وجميع أنواع الزواحف التى حول الصندوق ، وأوقفها عن النهوض . وذهب إلى حيث كان الثعبان الخالد ؛ وقاتله وقتله ؛ فحيى واستعاد طبيعته . فقاتله ثانية ، وقتله للمرة الثانية ؛ وعاد إلى الحياة ثانية . فقاتله ثالثة ؛ وشطره إلى شطرين ، ووضع بين القطعة وأختها رملا ؛ فمات ، ولم يستعد طبيعته أبدا .

وذهب نفركبتاح إلى حيث كان الصندوق . فوجد أنه صندوق حديدى ؛ ففتحه ووجد صندوقا برنزيا ؛ ففتحه ووجد صندوقا من شجر العرعر ؛ ففتحه ووجد صندوقا من العاج والأبنوس؛ ففتحه ، ووجد صندوقا من الفضة ؛ ففتحه ، ووجد صندوقا من الذهب ؛ ففتحه ، ووجد الكتاب فيه ، فأخرج الكتاب من الصندوق الذهبي .

وقرأ رقية منه ؛ فسحر السماء ، والأرض ، والعالم السفلى ، والتلال ، والمياه ؛ وفهم منطق جميع الطير فى السماء ، والسمك فى النهر ، والوحش فى الصحراء . وقرأ رقية أخرى ؛ فرأى إله الشمس مشرقا فى السماء مع آلهته التسع ، والقمر بازغا ، والنجوم فى هيئاتها (الحقة) ؛ ورأى سمك النهر ، مع القوة المقدسة المستقرة فى الماء فوقه . وقرأ رقية على الماء ، وجعله يستعيد صورته .

وركب ، وقال للمجذفين : « جذفوا بى إلى المكان الذى جئت منه » . وجذفوا به ليلا ونهارا . ثم بلغنى فى الموضع الذى كنت فيه ؛ فوجدنى جالسة على ماء قفط ، دون شراب ولا طعام ، ودون أن أفعل شيئا على الأرض ، وكأنما أنا شخص وصل إلى البيت الطيب[١٥] .

قلت لنفركبتاح : « أهلا بعودتك ! أرنى هذا الكتاب الذى تجشمنا هذه المتاعب العظيمة من أجله » . فوضع الكتاب فى يدى .

وقرأت رقية منه ؛ فسحرت السماء ، والأرض ، والعالم السفلى ، والتلال ، والمياه . وفهمت منطق جميع الطيور فى السماء ، والسمك فى النهر ، والوحوش . وقرأت رقية أخرى ؛ فرأيت إله الشمس مشرقا فى السماء مع آلهتها التسع ؛ ورأيت القمر بازغا ، وجميع نجوم السماء فى هيئاتها (الحقة) ؛ ورأيت سمك النهر ، والقوة المقدسة المستقرة فى الماء عليه .

وإذ كنت لا أستطيع الكتابة كلمت[١٦] نفركبتاح ، أخى الأكبر ، الذى كان كاتبا طيبا وعظيم الحكمة . وكان أمامه صحيفة من ورق البردى الجديد استحضرها ، وكتب عليها كل كلمة أمامه فى الكتاب ؛ وأحرقها[١٧] ، وأذاب الرماد فى الماء ؛ وعندما علم أنها ذابت شربها[١٨] وعلم ما كان فيها .

ورجعنا إلى قفط فى اليوم نفسه ، وقضى عطلة أمام إيزيس قفط وحربوقراط . وركبنا السفينة ، وانحدرنا مع النهر ، فوصلنا إلى بقعة تبعد مرحلتين إلى الشمال من قفط .

وحينئذ كان تحوت قد اكتشف كل ما وقع لنفركبتاح بشأن الكتاب . فأسرع تحوت ليعلن الأمر أمام إله الشمس ، وقال : « اكشف حق وسبى قبل نفركبتاح بن مرنبتاح الفرعون ! لقد ذهب إلى كنزى ، وانتهبه ، وانتزع صندوقى ووثائقى ؛ وقتل حارسى المراقب له » . فقيل له : « إنه وكل من يمت إليه طوع أمرك » .

وأنزلوا قوة إله من السماء قائلين : « لا تسمحى لنفركبتاح أو أى شخص يمت إليه بالذهاب آمنا إلى منف » .

وفى لحظة معينة خرج مرياب الصبى من تحت مظلة السفينة الملكية ، ووقع فى النهر ، وغرق ، فصاح كل من على ظهر السفينة . وخرج نفركبتاح من خيمته ، وقرأ رقية عليه ، فرفعه ، بقوة مقدسة مستقرة فى النهر عليه . وقرأ رقية ، وجعله يقص عليه كل ما وقع له ، والاتهام الذى قدمه تحوت أمام إله الشمس .

ورجعنا إلى قفط معه ، وأخذناه إلى البيت الطيب ؛ ورعيناه ، وحنطناه كأمير ، شخص هام ؛ ووضعناه ليستريح فى كفنه الحجرى فى مدافن قفط .

قال نفركبتاح ، أخى : « فلنرحل إلى الشمال . ولنعجل ، لئلا يسمع فرعون بما وقع لنا ، ويغتم من أجلنا » . فركبنا السفينة ، واتجهنا شمالا ، وأسرعنا .

وعلى مبعدة مرحلتين إلى الشمال من قفط ، فى الموضع الذى سقط فيه مرياب الصبى فى النهر ، خرجت من تحت مظلة السفينة الملكية ، وسقطت فى النهر ، وغرقت ، وصاح كل من على ظهر السفينة . وأخبروا نفركبتاح ، الذى خرج من خيمة السفينة الملكية ؛ وردد رقية لى ، وانتشلنى ، بقوة مقدسة مستقرة فى الماء على . واستحضرنى ، وقرأ رقية على ، وجعلنى أقص عليه كل ما وقع لى ، والاتهام الذى قدمه تحوت أمام إله الشمس .

وعاد إلى قفط معى ، وأخذنى إلى البيت الطيب ؛ ورعانى ، وحنطنى تحنيطا يليق بأمير ، شخص هام جدا ، وأرقدنى لأستريح فى اللحد الذى كان يستريح فيه الصبى مرياب . وركب السفينة ، واتجه شمالا ، وأسرع .

وعلى مبعدة مرحلتين إلى الشمال من قفط ، فى الموضع الذى سقطنا فيه فى النهر ، تكلم بقلبه ، قائلا : « أأستطيع الذهاب إلى قفط والإقامة فيها ؟ وإلا ماذا أقول لفرعون ، إذا ذهبت إلى منف الآن ، وسألنى عن أبنائه ؟ أفأستطيع أن أقول له : « لقد أخذت أبناءك إلى طيبة ، وقتلتهم ، أما أنا فها أنا ذا حى ؛ وقد جئت إلى منف متمتعا بالعيش ؟ » .

واستحضر قطعة من الكتان الملوكى الخاص به ، وجعلها شريطا ؛ لفه حول الكتاب ، ووضعه على جسده ، وأحكمه . وخرج نفركبتاح من تحت مظلة السفينة الملكية ، وهوى فى النهر ، وغرق . وصاح كل من على ظهر السفينة ، « يا للأسف العظيم ، يا للأسف المحزن ! هل يعود الكاتب الطيب ، العالم الذى لم يكن له مثيل ؟ » .

واستمرت السفينة الملكية فى رحلتها شمالا ، ولا يدرى أى رجل على الأرض موضع نفركبتاح . وبلغوا منف ؛ وأعلن مقدمهم أمام فرعون . وهبط فرعون ليقابل السفينة الملكية ، فى ثياب الحداد ، وارتدى جميع أهل منف ثياب الحداد ، وكذا كهنة بتاح ، وكبير كهنة بتاح ، والمجلس ، وأفراد بيت فرعون ،

جميعا . ثم رأوا نفر كبتاح ممسكا بدفات[١٩] القارب الملكى بصناعته كاتبا طيبا . فأخرجوه ، ورأوا الكتاب على جسمه .

وقال فرعون : « خبئوا هذا الكتاب الذى على جسمه » . فقال مجلس فرعون ، وكهنة بتاح ، وكبير كهنة بتاح ، فى حضرة فرعون : « مولاى العظيم — منحك الإله عمرا كعمر الشمس — لقد كان نفر كبتاح كاتبا طيبا وعلامة » .

وأذن لهم فرعون بإدخاله البيت الطيب فى اليوم السادس عشر ، ولفه فى الخامس والثلاثين ، ودفنه فى السبعين[٢٠]؛ وأرقدوه ليستريح فى كفنه الحجرى فى استراحاته .

فانظر إلى الكوارث التى أصابتنا بسبب هذا الكتاب الذى تقول عنه : « اعطونيه » . فلا حق لك فيه ، على حين اجتثت آجالنا على الأرض بسببه[٢١] » .

فقال خعمواست لأحوبرت : « دعينى آخذ هذا الكتاب الذى رأيته بينك وبين نفر كبتاح ، وإلا أخذته قسرا » .

فنهض نفركبتاح من القاعدة الموضوع عليها وقال : « أيها الكاهن سم ، الذى تقص عليه هذه المرأة هذه الأمور المزعجة ، التى لم تقاسها ألبتة ، أمستطيع أن تأخذ الكتاب المذكور عن طريق قوة الكاتب الطيب ، أو المهارة فى اللعب بالدامة معى ؟ فليلعب كل منا مع الآخر بشأنه ! » فقال خعمواست : « إنى على استعداد » .

ووضعت أمامهما لوحة اللعب وقطعها ، ولعبا كلاهما . فكسب نفر كبتاح لعبة من خعمواست ؛ وردد نفر كبتاح رقية عليه ، فضرب رأسه بصندوق اللعب أمامه ، وجعله يغوص فى الأرض إلى قدميه . وفعل الأمر نفسه فى اللعبة الثانية ؛ كسبها من خعمواست ، وجعله يغوص فى الأرض إلى وسطه . وفعل الأمر نفسه فى اللعبة الثالثة ، وجعله يغوص فى الأرض إلى أذنيه . ثم قاسى خعمواست مشاق عظيمة على يدى نفر كبتاح . ونادى خعمواست إنهاررو ، أخاه غير الشقيق ، قائلا : « أسرع بالصعود إلى الأرض ، وقص فى حضرة فرعون كل ما وقع لى ؛ واجلب طلسمات أبى[٢٢] بتاح ، وكتبى فى السحر ! » .

فأسرع بالصعود إلى الأرض ، وقص أمام فرعون كل ما وقع لخعمواست . فقال فرعون : « خذ له طلسمات أبيه بتاح ، وكتبه فى السحر » . وأسرع انهاررو يهبط القبر ؛ ووضع الطلسمات على جسد خعمواست ، فنهض فى الحال . ووصل خعمواست إلى الكتاب ، وانتزعه . وخرج من القبر ، والضوء يسير أمامه[٢٣] ، والظلام خلفه . وبكت أحويرت عليه ، قائلة : « مرحبا بك ، يا ظلام ! ووداعا ، أيها النور ! لقد رحل كل ما كان فى القبر ! » . فقال نفر كبتاح لأحويرت : « لا تحزنى ؛ سأجعله يعيد هذا الكتاب إلى هنا ؛ وفى يده عصا شائكة ، وعلى رأسه مجمرة موقدة[٢٤] » .

وخرج خعمواست من القبر ، وأحكم غلقه وراءه ، كما كان .

ومثل فى حضرة فرعون ، وروى أمامه كل ما وقع له بسبب الكتاب . فقال فرعون لخعمواست : « أرجع هذا الكتاب إلى قبر نفركبتاح فعل الحكماء ، وإلا جعلك تعيده ، وفى يدك عصا شائكة ، وعلى رأسك مجمرة موقدة » . فلم يصغ إليه خعمواست ، وصار لا شغل له على الأرض غير فتح الكتاب والقراءة منه لكل إنسان .

ثم حدث ذات يوم أن كان خعمواست يتجول فى الصالة الأمامية لمعبد بتاح ، فرأى امرأة شديدة الجمال . ولم تكن امرأة أخرى على مثل هذه الروعة : كانت جميلة[٢٥] ، وتضع كثيرا من الجواهر الذهبية ، ويسير خلفها بعض التابعات ، ورجلان من حاشيتها ، كالخادمين .

وفى اللحظة التى وقع نظر خعمواست عليها ، لم يدر على أى بقعة من الأرض هو . فنادى غلامه ، قائلا : « أسرع إلى حيث تلك المرأة ، وتبين مركزها » . فأسرع الغلام إلى حيث كانت المرأة ، وحادث الخادم التى كانت تتبعها ، وسألها : « ماهى ؟ » فأخبرته ، « إنها تبوبو بنت نبى ســيدة أو بسطة[٢٦] ، فى أنخ‌توت[٢٧] ؛ وقد حضرت لتعبد الإله العظيم بتاح[٢٨] » .

وعاد الغلام إلى خعمواست ، وأدلى إليه بكل كلمة قالتها له . فقال خعمواست للغلام : « اذهب ، وقل للفتاة[٢٩] : إنه الكاهن سم ، خعمواست بن الفرعون سرماعت رع ، بعثنى ، ويقول :

« سأعطيك عشر قطع من الذهب — واقضى ساعة معى . أو تشكين أن تلاقى ضررا ؟ إن كان الأمر كذلك فسأمهد لك الأمر . وسآخذك إلى مكان خفى لن يعثر عليك فيه إنسان على الأرض ؟ » .

وعاد الغلام إلى حيث كانت تبوبو ، ونادى وصيفتها ، وأخبرها ؛ فصاحت كأن ما قاله تجديف . وقالت تبوبو للغلام : « كف عن مجادلتى عن طريق هذه الفتاة الحمقاء ، وتعال وحدثنى . » .

فجرى الغلام إلى حيث كانت تبوبو ، وقال لها : « سأعطيك عشر قطع من الذهب ؛ واقضى ساعة مع الكاهن سم ، خعمواست ، ابن الفرعون سرماعت رع ، أو تشكين أن تلاقى ضررا ؟ إن كان الأمر كذلك ، فسيمهد لك الأمر أيضا . وسيأخذك إلى مكان خفى لن يعثر عليك فيه إنسان على الأرض » .

قالت تبوبو : « اذهب ، وأخبر خعمواست ، « إننى من طبقة الكهنة ، ولست وضيعة . فإن أردت أن تفعل ما ترغب منى فيجب أن تحضر إلى بوبسطة ، إلى منزلى ؛ وكل شىء معد فيه ، وستفعل ما ترغب فيه منى ، فلا يظهر على أحد على الأرض ، ولا أحاكى أعمال النساء الوضيعات فى الشوارع ؟ ؟ .

ورجع الغلام إلى خعمواست ، وروى له كل ما قالته له . فقال : « أصابت » . وصدم كل من حول خعمواست .

واستحضر خعمواست زورق سفر من أجله ؛ وركبه وأسرع

إلى بوبسطة ، وأتى إلى غرب المدينة . فوجد منزلا شديد العلو ، يحيط به حائط يضمه ، وفى الشمال منه حديقة ، ومصطبة على بابه . فسأل خعمواست : « بيت من هذا ؟ » فأخبروه : « بيت تبوبو » . فولج داخل الحائط ؛ ثم التفت إلى المخزن فى الحديقة على حين كانوا يعلنون مقدمه لتبوبو . فهبطت ، وأمسكت بيد خعمواست ، وقالت له : « أقسم برخاء بيت نبى سيدة أو بسطة فى أنختووت ، الذى بلغته ، أنه يسرنى عظيم السرور أن تجشم نفسك مشقة الصعود معى » .

فصعد خعمواست مع تبوبو . ووجد الجزء الأعلى من البيت منظفا ومزخرفا ، وسقفه مزوقا باللازورد الحقيق والفيروز الحقيق ، ونثر فيه كثير من الوسائد المتخذة من الكتان الملكى ، ووضع على المائدة كثير من الكئوس الذهبية . وملىء كأس ذهبى بالخمر ووضع فى يد خعمواست . وقالت تبوبو : « تمتع بتناول شىء من الطعام » . قال : « لا أستطيع ذلك » . ووضع البخور على المجمرة ؛ وجلب له الدهون ، مما يزود به فرعون . وقضى خعمواست عطلة مع تبوبو ؛ ولم يكن رأى لها مثيلا ألبتة .

قال لتبوبو : « فلنفعل ما جئنا من أجله » . فقالت له : « ستعود إلى منزلك الذى تعيش فيه ؛ وأنا من طبقة الكهنة ، ولست وضيعة ، فإن أردت أن تفعل ما ترغب منى يجب أن تقوم من أجلى بعمل يحفظنى وتمنحنى ما يعادل كل ما ينسب إليك ، كل متاعك »[٣٠] .

فقال لها : « استدعى ناظر المدرسة[٣١] » . فأحضر حالا . وصنع لها خعمواست عملا يحفظ لها البقاء ، وعوضا ماليا يعادل كل شيء ينسب إليه ، كل متاعه .

وفى لحظة أعلن لخعمواست : « أبناؤك تحت » . قال : « فليصعدوا » . ونهضت تبوبو ، وارتدت رداء من الكتان الملكى[٣٢] ، ورأى خعمواست كل جزء منها من خلاله . فازدادت شهوته عما كانت قبل . فقال لتبوبو : « دعينى أفعل ما جئت هنا من أجله » .

قالت له : « ستعود إلى منزلك الذى تعيش فيه ؛ وأنا من طبقة الكهنة ، ولست وضيعة . فإذا أردت أن تفعل ما ترغب منى ، يجب أن تجعل أبناءك يوافقون على عملى ؛ ولا تدعهم يتشاجرون مع أبنائى على أملاكك » . فاستحضر أبناءه ؛ وجعلهم يوافقون على العمل .

وقال خعمواست لتبوبو : « دعينى أفعل ما جئت هنا من أجله » . فقالت له : « ستعود إلى منزلك الذى تعيش فيه . وأنا من طبقة الكهنة ، ولست وضيعة . فإذا أردت أن تفعل ما ترغب منى ، يجب أن تقتل أبناءك ؛ ولا تدعهم يتشاجرون مع أبنائى على أملاكك » . قال خعمواست : « فلتنفذى المقت الذى ترينه ملائما » . فأمرت بقتل أبنائه أمامه ، وطرحهم من النافذة

أمام الـكلاب والقطط(٣٣) ؛ فأكلوا لحمهم ، وخعمواست يسمع أصواتهم ، وهو يشرب مع تبوبو .

قال خعمواست لتبوبو : « دعينا نفعل ما جئنا هنا من أجله . فلقد فعلت جميع ما قلته ، من أجلك » . قالت له : « تفضل بالذهاب إلى هذه الغرفة القوية » .

وذهب خعمواست إلى الغرفة القوية ؛ ورقد على سرير من العاج والأبنوس ، وشهوته على وشك أن تجاب . ورقدت تبوبو إلى جواره . فمد يده ليلمسها ، وفغرت فاها على سعته فى صيحة مدوية . فاستيقظ خعمواست ، فى حالة من الحرارة عظيمة ، وما إليها ، دون أن يكون عليه ملابس البتة .

وفى لحظة رأى رجلا هاما(٣٤) راكبا عربة ، يجرى إلى جواره رجال كثيرون ، وكأنه فرعون . وحاول خعمواست أن ينهض ؛ فلم يستطع من الخجل ، لأنه لم يكن مرتديا ملابس .

قال الفرعون : « خعمواست . لم أنت فى هذه الحالة التى أنت فيها ؟ » قال : « إنه نفر كبتاح الذى فعل بى كل هذا » .

قال الفرعون : « اذهب إلى منف ، وأبنائك ؛ فإنهم يريدونك وهم ماثلون فى حضرة فرعون » . فقال خعمواست للفرعون : « مولاى العظيم — منحك الإله عمرا كعمر الشمس ! — كيف أستطيع الذهاب إلى منف ، ولا ملابس على البتة ؟ » .

فنادى الفرعون خادما كان واقفا إلى جواره ، وأمره بإعطاء خعمواست ملابس . وقال الفرعون : « خعمواست ، اذهب إلى منف وأبنائك ؛ فإنهم أحياء ، وماثلون فى حضرة فرعون » .

فذهب خعمواست إلى منف ، واحتضن أبناءه ، عندما وجدهم أحياء . قال فرعون : « أكنت ثملا ؟ » . فروى له خعمواست كل ما وقع له ولتبوبو ونفركبتاح ، جميعا .

فقال فرعون : « خعمواست ، لقد بذلت أقصى جهدى معك قبلا ، وقلت : إنهم سيقتلونك إن لم تعد هذا الكتاب إلى الموضع الذى أخذته منه ، فلم تصغ إلى إلى الآن . أعد هذا الكتاب إلى نفركبتاح ، وفى يدك عصا شائكة وعلى رأسك مجمرة موقدة » .

وخرج خعمواست من حضرة فرعون ، وفى يده عصا شائكة وعلى رأسه مجمرة موقدة ؛ وهبط إلى القبر الذى كان فيه نفركبتاح .

فقالت له أحويرت : « خعمواست ، إنه الإله العظيم بتاح الذى أعادك سالما » . وضحك نفركبتاح ، قائلا : « إنه ما قلته لك قبلا » . فحيا خعمواست نفركبتاح ، ووجد أن المرء يقول إنه إله الشمس الذى كان فى القبر كله(٣٥) . فحيا أحويرت ونفركبتاح خعمواست فى حرارة .

وقال خعمواست : « نفركبتاح ، أيوجد أى أمر مخجل ؟ » فقال نفركبتاح : « خعمواست ، إنك تعرف أن أحويرت وابنها

مرياب فى قفط ، وأنهما هنا فى هذا اللحد أيضا ، عن طريق صناعة الكاتب الطيب . فلأطلب منك أن تقوم بعمل ، وأن تذهب إلى قفط وتحضرهما هنا » .

وخرج خعمواست من القبر ؛ ومثل فى حضرة فرعون ؛ وقص عليه كل ما قاله نفركبتاح له . فقال فرعون : « خعمواست ، اذهب إلى قفط ، وأحضر أحويرت وابنها مرياب » . فقال لفرعون : « فلتعطنى المركب الملكى وأدواته » .

فمنح المركب الملكى وأدواته ؛ وركبه ، وأبحر ، وأسرع ، وبلغ قفط . وأعلن مقدمه لكهنة إيزيس فى قفط ، ورئيس كهنة إيزيس . فهبطوا لملاقاته ، وأخذوا بيده إلى الشاطئ .

وصعد منه ، ودخل معبد إيزيس قفط وحربوقراط . واستحضر ثورا ، وإوزة ، وخمرا ، وحرق القرابين وسكب الخمر أمام إيزيس قفط وحربوقراط . وذهب إلى مدافن قفط مع كهنة إيزيس ورئيس كهنة إيزيس ؛ وقضوا ثلاثة أيام وليال باحثين فى جميع المقابر فى مدافن قفط ، ومنقبين فى شواهد مقابر[٣٦] كتاب بيت الحياة ، وقارئين ما عليها من كتابة ، ولكنهم لم يهتدوا إلى مقر راحة أحويرت وابنها مرياب .

ووجد نفركبتاح أنهم لم يهتدوا إلى مقر راحة أحويرت وابنها مرياب . فنهض على هيئة رجل عجوز ، كاهن طاعن فى السن ؛ وأتى لمقابلة خعمواست .

فرآه خعمواست ، وقال للعجوز : « إنك لك مظهر الكبير فى السن . فهل تعرف مقر راحة أحويرت وابنها مرياب ؟ » فقال له العجوز : « قال جدى الأول لجدى : قال جدى الأول لجدى : « مقر راحة أحويرت وابنها مرياب بجوار الركن الجنوبى من دار رئيس الشرطة » .

قال خعمواست للعجوز : « ربما قدم لك رئيس الشرطة إساءة ما ، فتحاول بسببها أن تهدم داره » . فقال العجوز له : « عين مراقبا على ، واهدم دار رئيس الشرطة ؛ فإن لم يجدوا أحويرت وابنها مرياب تحت الركن الجنوبى من داره فلتفعل بى أى عمل فظيع » .

فوضعوا حارسا على العجوز ، وعثروا على مقر راحة أحويرت وابنها مرياب تحت الركن الجنوبى من دار رئيس الشرطة . فأذن خعمواست للشخصين الهامين أن يدخلا فى القارب الملكى ، وأمر بإعادة بناء دار رئيس الشرطة كما كانت سابقا .

وسمح نفر كبتاح لخعمواست أن يكتشف أنه هو الذى جاء إلى قفط لهدايتهم إلى مقر راحة أحويرت وابنها مرياب . وركب خعمواست على ظهر القارب الملكى ، واتجه شمالا ، وأسرع ، وبلغ منف مع جميع من كان معه .

وأعلن مقدمه فى حضرة فرعون ؛ فهبط لمقابلة القارب

الملكى . وأذن للأشخاص الهامين بالدخول إلى القبر الذى كان فيه نفركبتاح ، وأمر بملئه عليهم جميعا .

هذه القصة الخاصة بخعمواست ونفركبتاح وزوجته أحويرت وابنها مرياب كاملة . نسخها أبو الاله (٢٧) تجهوربتو . العام ١٥ ، الشهرالأول من الشتاء .

١ — أكملت هذه البدايات فى الترجمة ، والتكملة فى كثير من الأحيان يقينية.

٢ — موضع كانت تؤلف فيه الآثار الدينية والسحرية ، وربما بعض النصوص الرسمية الأخرى (انظر الفقرة التالية) . ووضع فيه مرياب ليتعلم الكتابة الهيروغليفية .

٣ — ربما لم تكن هذه الشواهد للكتبة المذكورين ، وانما تحمل نقوشا من عملهم .

٤ — غامضة .

٥ — أمر غامض ، يستقر فى الماء فوق السمك والغرقى ، ويذكر عدة مرات فى القصة .

٦ — الغرب ، موطن الموتى .

٧ — مدينة كبيرة على قريب من خمسة وعشرين ميلا فى شمال طيبة ، وعاصمة ريف . « ماء (حرفيا ، بحر) قفط » عبارة غامضة ، لا تعرف فى غير هذه القصة .

٨ — أى أبنوس مرصع بالعاج ؛ وكذا السرير المذكور قريبا من ختام القصة .

٩ — حقيقة البريد مقياس يماثل طوله قريبا من ستة أميال ونصف — ح ؛ وقد آثرت كلمة البريد العربية لابهامها .

١٠ — تعبير عن غاية العجب أو السرور .

١١ — الهة فى مصر الشمالية ، عبدت فى صا خاصة .

١٢ — مدلول هذه الملاحظة غامض .

١٣ — حر — بو — قراط ، (حورس الطفل) .

١٤ — انظر الفقرة التالية .

١٥ — المصنع الذى كانت تحنط فيه الجثث وتلف بالأربطة .

١٦ — هذه غامضة بالنسبة لى .

١٧ — أى النسخة .

١٨ — الطرق المماثلة لوعى المعرفة أو القوى السحرية كانت وما زالت واسعة الانتشار فى الشرق .

١٩ — كان للقارب المصرى دفتان ، على هيئة المجاذيف .

٢٠ ـ تلك هى النقاط الرئيسية فى معالجة الموتى المعقدة ، التى كانت تضم اخراج الأمعاء ، وغمس الجثة فى وعاء من الماء الملح ، وملأها بالأدهنة والتوابل ، ولفها بالثياب والأربطة لفا محكما .

٢١ ـ هنا تنتهى قصة أحويرت الطويلة ، وهنا يظهر خمواست ، الذىكانت أحويرت تحادثه ، للمرة الأولى فى الجزء الباقى من المخطوط .

٢٢ ـ اشارة ابن رمسيس الثانى هذا الى بتاح ، الذى كان رئيس كهنته ، باعتباره أباه أمر غير عادى تماما .

٢٣ ـ يشع الكتاب السحرى الضوء ؛ انظر وصف رجوعه الى القبر ، ص ١١٣ .

٢٤ ـ دلالة العصا الشائكة والمجمرة الموقدة (المذكورتين عدة مرات بعد) غامضة ، سوى أنهما يبدو تعبران عن التواضع والندم . ونعرف من مناظر المواقع أن المجمرة الموقدة كانت اشارة الىتسليممدينة أجنبية .

٢٥ ـ ربما كان المعنى : لم تكن جميلة حسب (كما ذكر قبل) ، بل كانت ترتدى أضا ، الخ ؟ .

٢٦ ـ قطة الهة هامة ، عبدت بصفة رئيسية فى بوبسطة (منزل أوبسطة) ، مدينة فى مصر الشمالية ، مذكورة بعد .

٢٧ ـ مقاطعة أو ضاحية من منف حيث كانت تبعد أوبسطة .

٢٨ ـ ظن البعض أن تبوبو صورة سحرية لأحويرت .

٢٩ ـ رسالة الى تبوبو .

٣٠ ـ كانت شروط الزواج المصرى تضم مئونة لتحفظ المرأة ، ويرثها الاطفال، مع التعهد برد مالالزوجة وممتلكاتها التىجلبتها معها اليهاعندالطلاق.

٣١ ـ شخص لا يزال من مهامه ، فى مصر ، تدوين شروط الزواج .

٣٢ ـ اشتهر بحسنه المتناهى .

٣٣ ـ القطط المصرية أكثر توحشا من القطط الأوروبية .

٣٤ ـ ظن البعض أنه نفركبتاح فى تنكر سحرى .

٣٥ ـ سطع الكتاب السحرى متألقا كل التألق .

٣٦ ـ واضح أن كثيرا منها كان مكبوبا على وجهه . وانظر التعليقة ٣ .

٣٧ ـ لقب كهنوتى غامض .

إغريقى فى مصر

ذخائر رامبسينيتوس

فى منتصف القرن الخامس ق.م. تقريبا ، زار هيرودوت الهليكارنسى ، « أبو التاريخ » الإغريقى مصر ، ويظن العلماء أنه قضى فيها بعض الوقت . ومن المستطاع رؤية ثمرات إقامته فى الوصف الطويل لمصر والتاريخ المصرى فى الكتاب الثانى من الحروب الفارسية . وقصة رامبسينيتوس — تحريف لرمسيس (لا شك أنه رمسيس الثانى*) — قطعة مشهورة من الأدب الشعبى ، يقابلها المرء فى صور متنوعة فى كثير من الأقطار . والقصة كما يرويها هيرودوت ذات إيحاء مصرى لا تخطئه العين ، وهى إن لم تكن مصرية الأصل ، فقد مصرت تماما . والترجمة لجورج رولنسون ، منقحة .

* * *

قالوا : إن الملك رامبسينيتوس امتلك ثروة عظيمة من الفضة ، ثروة لم يحصل على أكثر منها ، أو مثيلها أحد من الأمراء ، الذين خلفوه . واقترح ، لحسن المحافظة على هذه الأموال ، أن تبنى غرفة من الصخر ، يلامس أحد جوانبها الجانب الخارجى من قصره . ولكن البناء الذى بيت النية على سرقة هذه الثروة ، صمم أن يدخل ، فى أثناء البناء ، حجرا فى هذا الحائط ، يسهل أن يزحزحه عن موضعه رجلان ، أو رجل واحد . وبنيت الغرفة ، وأودع الملك ماله فيها . ومضى زمن ، ومرض البناء ، وعندما شعر

---

* ح : يقول الدكتور وهيب كامل : هو فيما يظهر رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧ ق.م .) من الأسرة الثانية والعشرين ، وقد اشتهر بضخامة ثروته .

بدنو أجله ، استدعى ابنيه ، وشرح لهما الخطة التى اتبعها فى بناء غرفة ذخائر الملك ، وأخبرهما أنه فعل ذلك من أجلهما ، ليعيشا عيشة رغدة دائما . ثم أعطاهما تعليمات واضحة خاصة بطريقة زحزحة الحجر ، وبلغهما المقاييس ، وأمرهما بالمحافظة على السر ، الذى يمكنهما من الثروة الملكية . ثم توفى الأب ، ولم يتباطأ الابنان عن العمل ؛ وإنما ذهبا بالليل إلى القصر ، وعثرا على الحجر فى حائط البناء ، وزحزحاه فى سهولة ، ونهبا كثيرا من المال .

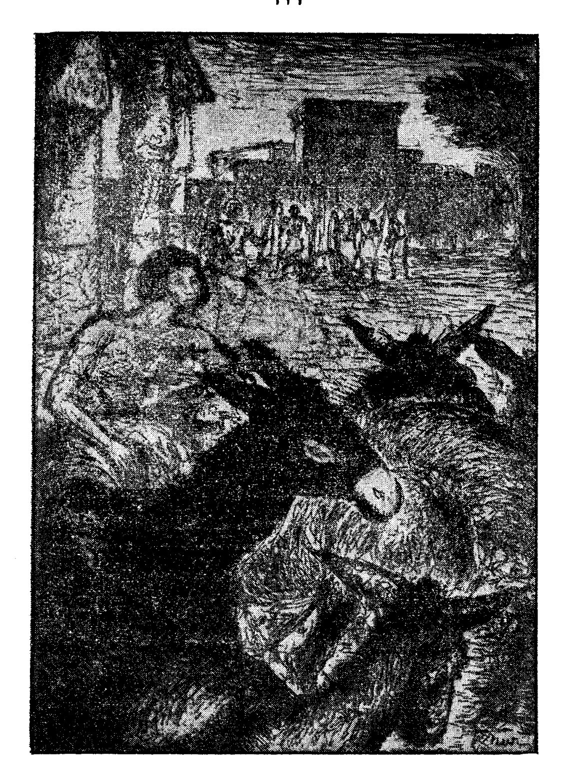
وعندما فتح الملك الغرفة ثانية ، دهش إذ رأى ما حل بها من نقص . ولكنه لم يعرف من يتهمه ، إذ كانت جميع الأختام سليمة ، وأقفال الغرفة لم تمس . ولكنه عندما فتح الغرفة مرة ثانية وثالثة ايضا ، وجد أن أموالا أخرى قد ضاعت . فاللصوص إذن لم يتوقفوا ، وإنما عكفوا على السرقة مرة بعد أخرى . وأخيرا صمم الملك على أن يتخذ بعض الأشراك ، ويضعها بجوار الأوعية التى تحتوى على الثروة . وتم ذلك ، وعندما حضر اللصان إلى غرفة الأموال ، كالعادة ، ودخل أحدهما من الثغرة ، وتقدم نحو الجرار ، وجد نفسه فجأة يمسك به أحد الأشراك . وإذ تبين أنه ضائع ، نادى أخاه فى الحال ، وقص عليه ما حدث ، وحثه على أن يدخل بأقصى سرعة ممكنة وأن يقطع رأسه ، كيلا تكتشف جثته وتعرف ، ويحل الخراب بالآخر . ورأى اللص الآخر النصيحة حسنة ، وأغرى على اتباعها ؛ ثم أحكم الحجر فى موضعه ، ورجع إلى البيت ، آخذا معه رأس أخيه .

وعندما طلع النهار ، دخل الملك الغرفة ، واشتد به العجب إذ رأى جثة اللص فى الشرك دون رأس ، على حين كان البناء لا يزال سليما ، لا يرى فى ناحية من نواحيه مدخل أو مخرج . وفى حيرته هذه أمر أن تعلق جثة الميت خارج الحائط ، وأن يوضع حارس لمراقبتها ، وأن يقبض على أى شخص يرى باكيا أو منتحبا ، ويحضر أمامه . وعندما سمعت الأم بتعليق جثة ابنها ، تألمت أعظم الألم ، وكلمت ابنها الحى ، وأمرته أن يتخذ خطة ما لاسترجاع الجثة ، وهددته إذا لم يفعل ذلك أن تذهب بنفسها إلى الملك ، وتكشف أمره .

فقال الابن كل ما استطاع لإغرائها بترك المسألة ، دون جدوى : ولكنها استمرت تزعجه ، إلى أن استسلم لتوسلاتها ، واتخذ الخطة التالية : ملأ بعض القرب بالخمر ، وحملها على حمير ، وساقها أمامه إلى أن وصل إلى المكان الذى يراقب فيه الحرس جثة الميت ، فاستدار إلى قربتين أو ثلاث ، وفك أعناقها . فانصب الخمر فى غزارة ، فأخذ يضرب رأسه ، ويصيح بأعلى صوته ، متظاهرا أنه لا يدرى إلى أى حمار يذهب أولا . وحينما رأى الحرس الخمر منصبا ، سروا لاغتنام الفرصة ، واندفعوا جميعا إلى الطريق ، يحمل كل منهم وعاء ، وتلقف السائل المنصب . فتظاهر السائق بالغضب ، وقذفهم بالشتائم ؛ فبذلوا جهدهم فى تهدئته ، إلى أن تظاهر أخيرا بالاستسلام ، واستعادة مزاجه الطيب ،

وساق حميره بعيدا عن قارعة الطريق ، وشرع فى العمل على إعادة ترتيب أحمالها ؛ وفى تلك الأثناء ، وهو يحادث الحرس ويثرثر معهم ، أخذ أحدهم يعاونه ، ويضحكه ، فأعطاهم قربة هدية . فعزموا عندئذ على الجلوس ، وتبادل الشراب ، فالتمسوا منه البقاء والشرب معهم . فرضخ الرجل لإغرائهم ، وبقى . وإذ استمر الشرب ، توثقت عرى الصداقة بينهم ، فمنحهم قربة أخرى ، فأكثروا من الشرب بحيث استولى عليهم السكر ، وانطرحوا على الأرض مخمورين ، وناموا فى موضعهم . وانتظر اللص إلى أن اشتد ظلام الليل ، وأنزل جثة أخيه ؛ ثم حلق ساخرا الجانب الأيمن من لحى جميع الجنود ، ثم تركهم . ووضع جثة أخيه على الحمير ، ورجع إلى البيت ، فأتم بذلك ما طلبته أمه منه .

وعندما بلغ مسامع الملك أن جثة اللص قد سرقت ، عظم به الغضب . واشتدت رغبته فى القبض على الرجل الذى ارتكب هذه الحيلة ، مهما كلفه الأمر ، وقيل لى إنه مال إلى خطة لا أستطيع تصديقها . أرسل ابنته إلى حانة ، وأمرها أن تأذن لجميع القادمين بمقابلتها ، على أن تطلب من كل رجل قبل أن يجالسها أن يخبرها بأبرع وأخبث ما عمله فى حياته كلها . فإن أخبرها أحد بقصة اللص ، فلتقبض عليه ، ولا تدعه يبتعد عنها . ففعلت الابنة كما أراد أبوها ، فرغب اللص ، الذى كان متيقظا إلى دوافع الملك ، فى أن يتغلب على الملك فى الحيلة والمهارة . ولذلك وضع الخطة



التالية : حصل على جثة رجل حديث الموت ، وقطع إحدى ذراعيه من الكتف ، ووضعها تحت ردائه ، وذهب إلى بنت الملك . وعندما واجهته بالسؤال كما فعلت مع الآخرين جميعا ، أجابها بأن أخبث ما فعله قطع رأس أخيه عندما وقع فى شرك فى خزانة الملك ، وأبرعه إسكار الحرس وإنزال جثة أخيه المعلقة . وعندما سمعت الأميرة ذلك أمسكت به ، ولكن اللص قدم لها فى الظلام يد الجثة . وإذ ظنت أنها يده ، قبضت عليها وأمسكت بها فى حزم ؛ على حين فر اللص من الباب ، تاركا إياها فى قبضتها .

وحينما أخبر الملك بهذه الحيلة الجديدة ، عجب لذكاء الرجل وشجاعته ، وأخيرا أرسل الرسل إلى كل مدينة لإعلان عفوه عن اللص ، ووعده بجائزة كبيرة ، إذا ما قدم وكشف عن نفسه . فوثق اللص بكلمة الملك ، ومثل فى حضرته فى جرأة ؛ فعظم إعجاب رامبسينيتوس به ، واعتبره أذكى الرجال ، وزوجه من ابنته . وقال : « فاق المصريون جميع الشعوب فى الحكمة ، وفاق هذا الرجل جميع المصريين » .

مصر القبطية

يلي قصتان ، مترجمتان عن القبطية ، ويصوران مراحل في حياة بسندة ، أسقف قفط المشهور .

وقد ولد بسندة في عام ٥٦٨ م ، من أب فلاح ، وصار راهبـا في حداثته ، وقد اشتهر حتى في صباه بتدينه وزهده ؛ ثم عاش وحيدا في الكهوف أو المقابر ، ثم لحق بجماعة دينية في قوص ، على مبعدة عشرين ميلا تقريبا إلى الشمال من طيبة . وفي تلك الأعوام اشتهر شهرة كبيرة بالورع والزهد . وفي ٥٩٨ م تقريبا عين أسقفا لقفط ، وهي مدينة قديمة وهامة على بعد ثلاثين ميلا تقريبا من طيبة في شمالها . ثم هرب أمام الغزاة الفرس إلى دير في مدينة هابو (انظر صفحة ١٣٧ ؛ التعليقة ١) ، مع رفيق واحد ، هو يوحنا الكبير . ويبدو أنه لم يعد إلى أسقفيته ؛ وتوفي حوالى ٦٣٢ م ، ودفن بجوار دير قوص .

وتعرف عدة مخطوطات ، قبطية وعربية ، تضم ترجمة حياته . وهي شأن التراجم الأخرى للأقباط القدسين تتألف بصفة رئيسية من الكرامات التي أتمهـا الأسقف أو عن طريقه ؛ ودونها مريده ، يوحنا الكبير ، والأسقف موسى ، خليفة بسندة في أسقفية قفط .

ولم أتردد في الترجمة في الرجوع إلى النسخ العربية لتصحيح المعنى في المواضع التي أجد فيها النصوص القبطية محرفة .

القديس بَسَنْدَة والغيور

اتفق ذات يوم أن اتقدت روح الغيرة فى قلب رجل، وصار غيوراً على زوجته : وألقى الشيطان ، الكاره للخير ، والمتشوق إلى الإساءة إلى طبيعة البشر ، الشك فى قلب زوجها من رجل معين كأنما خانته معه . ولكن المرأة كانت بريئة من ذلك الإثم ، وكان الرجل أيضا بريئا من الوصمة التى لطخ بها مع المرأة ، كما ستخبرنا القصة إذا تقدمنا .

وطرد الرجل زوجته بسبب الإثم الذى تخيل ارتكابها إياه . وبذل أبوه وأمه كل جهد ممكن لإغراء الرجل على العيش معها ، كما يقول سليمان الحكيم : « قلب زوجها مفعم بالغيرة[1] » .

ولعدم إطالة القصة طولا سخيفا ، نقول إن الأمر بلغ مسامع قسس قريته ، فحرموه من الاشتراك فى الأسرار المقدسة[2] . وأخبر القسس أبى المقدس بالأمر ؛ فأرسل أبى إليه ، قائلا : « تحرك وتعال إلى ، وسأجد لك الجواب الضرورى (لشكوكك) » فصاح الرجل فى القرية ، سائرا من مكان إلى مكان ، منفجرا فى غيظ ، وقال: « لن أذهب إلى بسندة ؛ وماذا سيفعل بسندة بى ؟ » لأن ذلك الرجل كان من أهل قفط .

وعندما استمر فى الصياح المحنق إلى أن دلفت الشمس إلى مغيبها فى ذلك اليوم ، أوقع الله ، الذى قال على لسان الرسول :

« لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء بل أعطوا مكانا للغضب ، لأنه مكتوب لى النقمة ، أنا أجازى ، يقول الرب[٣] » ، أوقع الرجل فى اضطراب مخيف بالليل . فاشتد الوجع بأحشائه بسببه ، فقال وهو يقاسى أشد الألم ويصيح : « خذونى إلى أبى بسندة ؛ أخبركم أن ما وقع بى إنما بسببه . أبتى : أرجو أن تساعدنى ، لأننى على وشك الموت ، وإن لم تأخذنى إليه فلن أجد خلاصا » . ويئس أبوه وأمه منه ، وظنا أنه ميت . وقالا : « فلنعرضه عليه (القديس) ، حتى لو عاش (ابننا) ، ما دام يقول : « خذونى إلى الأب بسنده الأسقف » . وعلى أية حال ، فإنه إذا ما أخذناه إليه سيصلب عليه ، فيقلع عنه الألم » . وكان ذلك فى بداية أسقفية أبى .

وأحضراه إلى دير أبى ، وقرعا الباب . فخرجت إليهم ، وقال أبوه لى : « يوحنا ، إن كنت تحمل أية عناية بى فأرجو أن تخبر الرجل العظيم ، وإلا عدا الموت على ابنى ، وإنى لأعتقد أنه بمعونة الله لو صلب على ابنى فسيجد خلاصه حالا . وقد رجانى ، قائلا : خذنى إلى الأب بسندة الأسقف ، وسأشفى ، لأننى إنما أتعذب بسببه . وإن كنت قد تفوهت فى غباتى بما يسخطه ، فإنما ذلك لأنى جاهل » .

وصاح ابنه أيضا بى ، قائلا : « يا يوحنا ، أرجو أن تعلن مقدمى للرجل العظيم ، لأن شدائد الموت آخذة بمخانق . انظر ، ترنى فى حاجتى الأليمة . لم لم يغلق فمى ؟ ، ولم لم أمت قبل أن أنبذ

بكلمة فى ذلك اليوم ؟ أسرع وأخبر مولاى ، الأب بسندة ، بآلامى . عاونى ، ولا تتركنى أموت على بابك » .

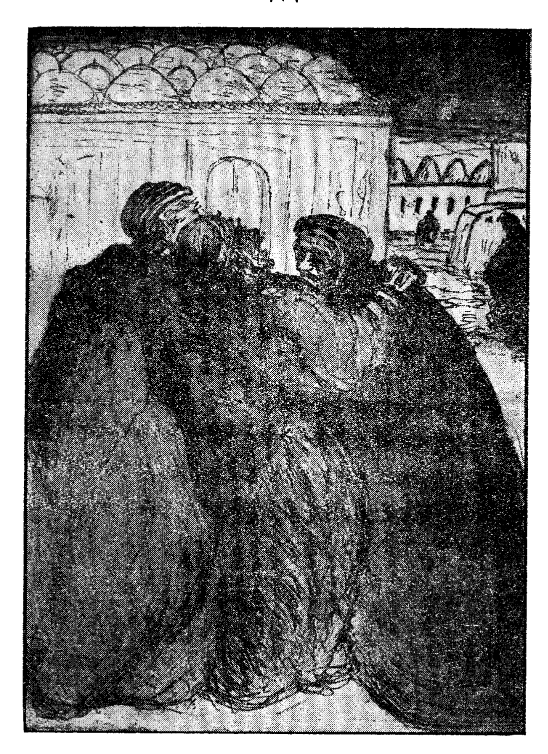
وعندما سمعت هذه الأمور من الرجل وابنه دخلت وأخبرت أبى بأمر الرجل وابنه . فقال لى : « دعه وحيدا إلى أن يصوغ التماسه صياغة ملائمة ، لأنه جاهل » . فأجبته : « إن تركناه مات ، فلم يبق فيه غير أنفاس قلائل ، وأرى أنه صاغ التماسه » .

قال أبى : « أدخله » . وعندما دخل هو وأبوه ألقى بنفسه على قدمى أبى مدة طويلة . فقال له أبى : « انهض ، أيها الجاهل » . فأجاب الرجل : « والله ، لو قضيت ثلاثة أيام طريحا على قدميك ، ما أنهض إن لم تضع قدمك على رأسى » . فأمسك أبى بشعر رأسه وأنهضه ، وقال له : « انهض . انظر ، إن الله سيمنحك الشفاء ما دمت مطيعا لى » . فأجاب الرجل : « أقسم بالشدائد التى خلصتنى منها صلواتك ، أننى لن أجرؤ على عصيانك ، إن كان قد بقى من حياتى سنة أو سنتان » .

قال أبى : «لقد ألمت بك هذه الأحداث لأنك طردت زوجتك بغير ذنب ؛ وإنها والرجل كليهما بريئان مما تخيلته منهما . ولكننى أخبرك إن رغبت أن يقتنع عقلك بشأنها ، وشأن الرجل الذى تخيلت منه الإثم معها — لأن الرجل ، يا بنى ، لا يرى إلا الوجه ، على حين يرى الله القلب — عندما تذهب إلى البيت أعد زوجتك فى بيتك ؛ فسييسر الله لك ولها الأمور . وأظن أنها حامل

وستلد لك ابنا ، وما قيل عنها باطل ، ولكنها ، صدقني ، بريئة من الإثم . ولكنها إن ولدت بنتا فلا تبق معها ، وإنما اطردها ، لأنها حينئذ تكون غير بريئة من الإثم الذى رميت به ، ولكن انتهكت حرمة زواجها . وإن ولدت ولدا كان ما رميت به باطلا ، وهى بريئة مما تخيل عليها . وإن أردت أن تقيدها بقسم لا أمنعك ، لأن ذلك ما يطلبه قانون الله : « إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة ، واضطجع معها رجل اضطجاع زرع ، وأخفى ذلك عن عينى رجلها ، واستترت وهى نجسة ، وليس شاهد عليها ، وهى لم تؤخذ ، فاعتراه روح الغيرة ، وغار على امرأته وهى نجسة ، أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهى ليست نجسة ، يأتى الرجل بامرأته إلى الكاهن ، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب ويكشف رأس المرأة ، ويجعل فى يديها تقدمة التذكار التى هى تقدمة الغيرة ، وفى يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر ، ويستحلف الكاهن المرأة . . . وبعد ذلك يسقى المرأة الماء . ومتى سقاها الماء ، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها ، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة ، فيتورم بطنها وتسقط فخذها ، فتصير المرأة لعنة فى وسط شعبها . وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة ، تتبرأ وتحبل بزرع[٤] ، والآن ، إن لم تكن قد اقتنعت ، يا بنى ، فاجعلها تقسم ؛ فإنى لا أمنعك » .

فرد الرجل ، قائلا : « لقد اقتنع قلبى منذ اللحظة التى حدثتنى فيها ، ولن أقلع ثانية عن طاعتك » .



وحيا وابتعد وذهب إلى البيت مع أبيه ، يمجد الله والقديس الأب بسندة ، وعندما بلغ بيته سالم زوجته . وأنجبت ابنا ، كما قال الأب بسندة المقدس . وسمى الرجل ابنه بسندة ، وبقى مع زوجته منذ ذلك اليوم إلى يوم وفاته .

وأتم القديس ثلاث كرامات ، الواحدة أحسن من الأخرى ، وهى : أنقذ المرأة من التهمة الزائفة التى تخيلت ضدها ؛ وخلص الرجل (الزانى المزعوم) من الوصمة ؛ وطهر قلب زوجها من خداع الشيطان ، وأعاد السلام إلى الزوجين .

* * *

١ — قارن بسفر الأمثال ، الاصحاح السادس ، الآية ٣٤ (النسخة القبطية السعيدية) .

٢ — العشاء الربانى .

٣ — سفررومية ، الاصحاح الثانى عشر ، الآية ١٩ .

٤ — انظر سفر العدد ، الاصحاح الخامس ، الآيات ١٢ — ٢٨ .

القديس بسندة والمومياء

اتفق ذات يوم ، وأبى وأنا لا زلنا فى دير مدينة هابو[1] ، أن قال أبى لى : « انهض ، يا يوحنا ، يا بنى ، واتبعنى لأريك المكان الذى سآوى إليه فى عزلتى ، لتزورنى كل سبت وتجلب إلى قليلا من الطعام ، وقليلا من الماء للشرب ، لإعالة بدنى » ونهض أبى وتقدمنى ، متأملا فى الكتب المقدسة ، وحى الله .

وعندما قطعنا قريبا من ثلاثة أميال ، حسب تقديرى ، طلعنا على مكان شبيه بالحجرة المفتوحة على سعتها . وعندما دلفنا إلى ذلك المكان وجدناه شبيها بالحجر المنحوت ، مع ستة أعمدة تعتمد عليها الصخرة ، وسعته ٥٢ ذراعاً[2] ، وعرضه أربعة ، وارتفاعه مناسبا ، وفيه عدة مومياوات . فإن مررت بذلك المكان مجرد مرور شممت قدرا من الروائح تبعثها تلك الجثث . فأخذنا المومياوات وكومناها واحدة فوق أخرى ، فنظف المكان . وكان المكان الذى كانت فيه الجثث عظيم الزخرفة . وكانت الأردية الملفوفة بها المومياء الأولى ، التى كانت بجوار الباب ، من الحرير الملكى الخالص ، وكان سميكا جدا ، وكانت أصابع يديها ورجليها ملفوفة على حدة .

قال أبى : « منذ كم سنة مات هؤلاء ، وإلى أى إقليم ينتمون ؟ » قلت له : « الله أعلم » . فقال أبى لى : « ابتعد ، يا بنى ، والجأ إلى

ديرك ، واعتن بنفسك . فهذه الدنيا وهم، وقد نرحل منها فى أى وقت. واعتن بمقاطعتك البائسة ، وأطل موعظتك ، واجعلها كاملة ، وأنشد صلواتك إنشادا حسنا ، كلا منها فى وقته ، كما علمتك ، ولا تأت إلى إلا يوم السبت وحده » . وعندما فرغ من كلامه غادرته .

وفى سيرى فحصت أحد الأعمدة ، فوجدت كتابا ، درجا صغيرا من الرق الجيد . وعندما فكه أبى قرأ فيه ، ووجد أسماء جميع من دفنوا هناك مدونة فيه ؛ فأعاده إلى ووضعته فى موضعه . وحييت أبى وغادرته ؛ وسرت وهو يرينى طريق الخروج ، قائلا لى: « اجتهد فى أعمال الله ، ليرحم روحك البائسة . أترى هذه المومياوات ؟ لا بد أن يصير كل إنسان مثلها . فبعضهم الآن فى الجحيم ، وهم من عظمت آثامهم . وبعضهم فى الظلام الخارجى ، وبعضهم فى الحفر والآبار الملأى بالنار ، وغيرهم فى أسفل جهنم ، وغيرهم فى نهر النيران ؛ لم يمنحوا أية راحة بعد . ثم يوجد غيرهم فى مواضع الراحة ، وفقا لأعمالهم ، التى كانت حسنة . فعندما يخرج المرء من هذه الدنيا يكون الماضى ماضيا » . وعندما قال لى هذه الأمور قال : « صل من أجلى ، يا بنى ، حتى أراك ثانية » . ثم أتيت إلى مأواى ، وبقيت ، أعمل وفق أوامر أبى المقدس الأب بسندة .

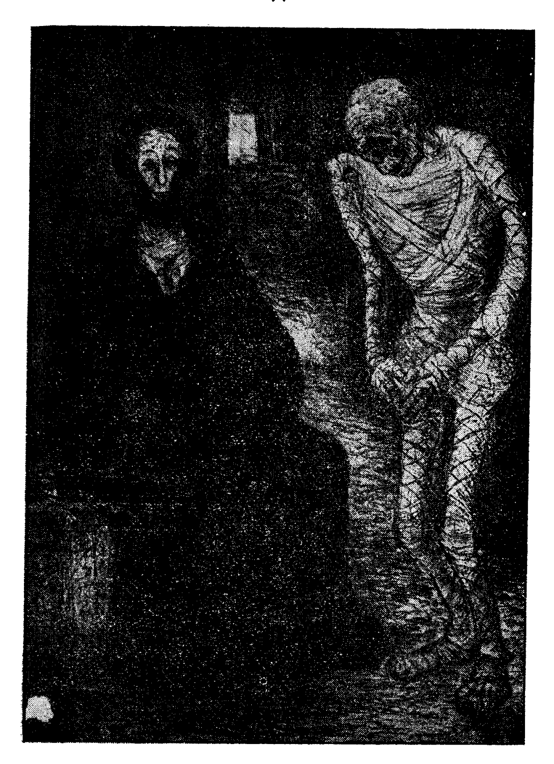
وفى السبت التالى ملأت جرة الماء ، و (أخذت) قليلا من

القمح المرطب ، وفقا لمقدار طعامه ، تبعا لأمره ، (لأنه) صمم على أيفتين ، وقسمها على أيام (الصوم) الأربعين ، وأخذ مكيالا وكالها (الأقسام) ، قائلا : « عندما تأتى يوم السبت أحضر هذا المكيال حسب ، والماء ، وزرنى » . ثم أخذت جرة الماء والقمح المرطب القليل ، ودخلت إلى المكان الذى يأوى إليه معتزلا . فلما اقتربت من مأواه سمعت شخصا يبكى ويضرع إلى أبى بذهن عظيم الاضطراب والألم ، قائلا : « أضرع إليك ، يا مولاى ، أن تضرع إلى الله من أجلى كى يخلصنى من ألوان العذاب ولا يعيدنى إليها ثانية ، فقد قاسيت أعظم الآلام » . فظننت أن رجلا يتحدث مع أبى ، لأن المكان كان مظلما ؛ وجلست وأصغيت إلى أبى ، الذى كانت تحادثه مومياء ، المومياء التى ذكرت أنها كانت بجوار الباب .

قال أبى للمومياء : « إلى أى إقليم تنتسب ؟ » قال : « أنا من مدينة أرمنت » . قال أبى له : « من كان أبوك ؟ » قال : « أبى أجريكول ، وأمى يستاتيا » . فسأله أبى : « من كانا يعبدان ؟ » فقال : « كانا يعبدان من هو فى المياه ، أعنى بوسيدون » . فقال أبى له : « ألم تسمع قبل وفاتك بمقدم المسيح إلى الدنيا ؟ » قال : « لا ، يا أبتى ، لقد كان والداى وثنيين ، فاتبعت أنا طريقهما فى الحياة . وا أسفاه ، وا أسفاه لى إذ ولدت فى هذه الدنيا ! لم لم يصر رحم أمى قبرا لى ؟ ولكن حدث أن كان أول من

أحاط بى ، وأنا أعانى غمرات الموت ، حكام العالم[٣] ؛ فرووا جميع الشرور التى ارتكبتها ، وقالوا لى : فليأتوا الآن وليخلصوك من ألوان العذاب الذى ستقاسيه . وكان فى أيديهم كلاليب حديدية وأسنة حديدية محددة كالحراب ، وكانوا يخزون جوانبى بها ، ويصرون بأسنانهم على .

بعد قليل فتحت عينى ورأيت الموت معلقا فى الهواء فى أشكال شتى . وفى الحال استل الملائكة روحى البائسة من بدنى بدون شفقة ، وربطوها إلى ذيل حصان أسود شبحى وجرونى إلى الغرب . وا أسفاه على كل خاطئ مثلى ولد فى الدنيا ! يا مولاى ، لقد أسلمونى إلى أيدى كثير من المعذبين الذين لا رأفة لديهم ، وكل منهم مختلف عن الآخر فى صورته ! ما أكثر الوحوش المفترسة التى رأيتها فى الممر ، وما أكثر قوى التعذيب ! عندما حملونى فى الظلام الخارجى رأيت حفرة عظيمة يزيد عمقها على مئتى ذراع ، مليئة بالزواحف ، كل منها ذو سبعة رءوس وأجسادها كلها مغطاة بالحمات كالعقارب . وكان فيها أيضا حشرات عظيمة ، كبيرة جدا يبعث مرآها الرعب ، وفى أفواهها مخالب كالأوتاد الحديدية . فأخذت وطرحت أمام الحشرة التى لا تنام أبدا ، فواظبت على التهامى ، واجتمع معها جميع الوحوش المفترسة ، وعندما ملأت فاها ملأ جميع الوحوش المفترسة المحيطة بها أفواههم أيضا .



قال أبى له : « ألم يمنحوك راحة ، ولا غادروك برهة دون تعذيب ، منذ مت إلى اليوم ؟ » .

قالت المومياء : « لا ، يا أبى ، إنهم يرحمون كل من تحت العقاب فى كل سبت وأحد[1] . وعندما ينتهى الأحد يلقون بنا ثانية فى العذاب الملائم لنا ، فننسى الأعوام التى قضيناها فى الدنيا . ثم إذا لم نشعر بآلام هذا التعذيب عرضونا على لون آخر أشد إيلاما . ولكن حينما صليت من أجلى ، أمر الله حالا المكلفين بتعذيبى فانتزعوا من فى قطعة الحديد التى كانت موضوعة على ؛ وأطلقوا سراحى فجئت إليك . انظر ، لقد قصصت عليك الظروف التى كنت فيها . فيا مولاى ، صل من أجلى ، لأمنح قليلا من الراحة ، ولا أحمل إلى ذلك الموضع ثانية » .

فقال أبى له : « المولى عطوف ورحيم ، وسيرحمك . عد إذن ، ونم إلى يوم البعث العام لكل إنسان ، عندما ينهض جميع الناس وتنهض أنت معهم » .

والله شاهد على هذا الكلام ، يا إخوتى : إننى رأيت المومياء بعينى رأسى ، ورقدت فى موضعها كما كانت قبلا . أما أنا ، حينما رأيت هذه الأشياء ، فقد اشتد بى العجب ومجدت الله . وصحت قبل الدخول ، تبعا للقاعدة ، قائلا : « فليباركنى الله » . ودخلت وقبلت يديه وقدميه . فقال لى : « يوحنا ، منذ متى جئت هنا ؟ أرأيت أحدا ، أو سمعت أحدا يحادثنى ؟ » فقلت : « لا ، يا أبى » .

فقال لى : « لقد تفوهت بكذبة كجيحزى ، حين كذب على النبى ، فقال : « لم يذهب عبدك إلى هنا أو هناك[٥] » . ولكن إن كنت رأيت أو سمعت شيئا ، وأفضيت به إلى أى إنسان فى حياتى ، فأنت مطرود من الكنيسة » .

فأخفيت الخبر ، ولم أجرؤ على إذاعته إلا اليوم .

* * *

١ ــ بلدة على الضفة الغربية من طيبة ، كانت فى العصر القبطى مركز الجماعة المسيحية فى ذلك الجانب من النيل .

٢ ــ قريب من ٩٠ قدما .

٣ ــ طبقة من الأرواح .

٤ ــ تقول الرواية العربية ، منذ الساعة التاسعة من يوم السبت الى منتهى الأحد .

٥ ــ سفر الملوك الثانى ، الاصحاح الخامس ، الآية ٢٥ .



مصر الإسلامية

حكاية المكافأة

ألف « كتاب المكافأة » أبو جعفر أحمد بن يوسف ، المعروف بابن الداية . وكان كاتبا فى خدمة الطولونيين فى مصر ، ومؤلف عدة كتب ، منها تاريخ للطولونيين ، وكتاب عن سياسة أفلاطون ، وتواريخ الأطباء والفلكيين ، وعدد من القصائد . وتوفى ٩٥١م . وقد أخذت المقتطفات التالية من ترجمته فى « معجم الأدباء » ، الذى جمعه ياقوت الحموى ، الكاتب الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر . ويتألف من اقتباسات من مصادر معاصرة أو قريبة من المعاصرة :

« . . . كان أبوه يوسف بن إبراهيم ، يكنى أبا الحسن ، وكان من جلة الكتاب بمصر . . . وكان له مروءة تامة ، وعصبية مشهورة » .

« . . . أبو جعفر أحمد بن يوسف . . . من فضلاء أهل مصر ومعروفيهم ، وممن له علوم كثيرة فى الأدب ، والطب ، والنجامة ، والحساب ، وغير ذلك . . . كان . . . فى غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء ، والحساب ، والمنجمين ، مجسطى ، أوقليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر . . . » .

وكتاب المكافأة يضم إحدى وسبعين قصة ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام ، ويقوم تخطيطه على تمثيل المبدأ القائل بأن أعمال الخير والشر تجد جزاءها . وواضح أن كل القصص صادقة ، وابن الداية حريص على ذكر مصادره فى كل حكاية . وكثير من القصص تجارب شخصية للمؤلف ولأفراد عائلته الأقربين . وسرد القصص من إنشائه خاصة . ولا يقنع ابن الداية ، بخلاف كثير من جامعى الأقاصيص من العرب ، بمجرد إيراد قصصه كما

حصل عليها . بل يرويها بكلماته الخاصة وبطريقته الخاصة ، فى بساطة ، وواقعية ، وحس مرهف ، تميزه وتفرده فى عصر لقى فيه الزخـــرف ، والالتواء ، والتكلف ، أشد الإعجاب فى الأسلوب النثرى . وقد ظهرت الطبعة الأولى فى القاهرة فى ١٩١٤ ، عن مخطوط وحيد . ثم ظهرت طبعة معلق عليها للمدارس فى ١٩٤١ .

تاجر وزوجته

حدثنى أحمد بن أيمن ، كاتب أحمد بن طولون ، قال :

دخلت بالبصرة إلى تاجر — ذهب عنى اسمه — فرأيت بين يديه ابنين له فى نهاية من النظافة . فلما رآنى أقبل بنظرى إليهما ، قال لى : « أحب أن تعوذهما » ، ففعلت . وقلت له : « استجدت الأم لحسن نسلك » ! فقال : « ما بالبصرة أقبح من أمهما ، ولا أحب إلى منها ، ولها معى خبر عجيب » . فسألته أن يحدثنيه . فقال :

« كنت أنزل الأبلة[1] وأنا متعيش ، فحملت منها تجارة إلى البصرة فربحت ، وحملت من البصرة إلى الأبلة فربحت . ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر حتى كثر مالى ، وتعالم الناس إقبالى ، وآثرت السكنى بالبصرة ، وعلمت أنه لا يحسن بى المقام بها بغير زوجة . ولم يكن بها أجل قدرا من جد هذين الغلامين . وكانت له بنت قد عضلها[2] وتعرض لعداوة خطابها . فحدثتنى نفسى بلقائه فيها ، فجئته على خلوة . وقلت له : « يا عم ! أنا فلان ابن فلان التاجر » . فقال : « ما خفى عنى محلك ومحل أبيك » . فقلت : « قد جئتك خاطبا لابنتك » . فقال : « والله ما بى عنك رغبة ، ولقد خطبها إلى جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم ، وإنى لكاره من إخراجها عن حضنى إلى من يقومها تقويم العبيد » .

فقلت : « قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدخلنى فى عددك وتخلطنى بشملك » . فقال : « ولا بد من هذا ؟ » قلت : « لا بد ، وهو زائد فى فضلك على واصطناعك إياى » . فقال : « اغد على برجالك » .

فانصرفت عنه إلى ملأ من التجار ذوى أخطار ، فسألتهم الحضور معى فى غد ، فقالوا : « إنك لتحركنا إلى سعى ضائع » . قلت : « لا بد من ركوبكم معى » . فركبوا على ثقة من أنه يردهم ، وغدونا عليه فأحسن الإجابة ، وزوجنى وأطعم القوم ونحر لهم وانصرفوا . ثم قال لى : « إن شئت أن تبيت بأهلك فافعل ، فليس لها ما يحتاج إلى التلوم[3] عليه » . فقلت : « هذا يا سيدى ما أحبه » . فلم يزل يحدثنى بكل حسن حتى كانت المغرب فصلاها بى ، ثم سبح وسبحت ، ودعا ودعوت ، إلى أن كانت العتمة فصلاها بى . وأخذ بيدى فأدخلنى إلى دار قد فرشت بأحسن فرشة ، بها خدم وجوار فى نهاية من النظافة . فما استقر بى الجلوس حتى نهض . وقال : « أستودعك الله ، وقدم الله لكما الخير ، وأحرز التوفيق » .

واكتنفتنى عجائز من شمله ، فجلون ابنته على . فما تأملت طائلا . وأرخت الستور علينا . فقالت : « يا سيدى ! إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، ورآك أهلا لستره عليك ، فلا تخفر[4] ظنه فيك ، ولو كان الذى يطلب من

الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها ، لعظمت محنتى . وأرجو أن يكون معى منهما أكثر مما قصر بى فى حسن الصورة » . ثم وثبت فجاءت بمال فى كيس ، فقالت : « يا سيدى ! قد أحل الله لك معى ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغتك تزوج الثلاث وابتياع الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط » ؟

فقال لى أحمد :

لحلف لى التاجر إنها ملكت قلبى ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها . فقلت لها : « جزاء ما قدمته ما تسمعينه منى : والله لا أصبت من غيرك أبدا ، ولأجعلنك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق النساء وأضبطهن وأحسنهن تدبيرا فيما تتولاه بمنزلى . فتبينت وقوع الخيرة فى ذلك . ولحقتنى السن فصارت حاجتى إلى الصواب أكثر [من حاجتى إلى الغرام] . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها وحسن فعلها ، فرزقنى منها هذين الابنين الرائعين لك . ونحن منقطعون إلى جوده فينا ، وإحسانه إلينا » .

* * *

(١) الابلة : بلدة على شاطىء دجلة .
(٢) عضلها : حال دون زواجها .
(٣) التلوم : التلبث والانتظار .
(٤) تخفر : تنقض وتخلف .



ملك الهند والتاجر

حدثني منصور بن إسماعيل الفقيه ، قال :

خرج رجل نعرفه بتجارة ، قصده إلى الهند . فرجع إلينا بأنواع من الطيب كثيرة لها قيمة خطيرة ، وهو فى نهاية السرور . فقلنا له : « كم ربحت التجارة التى خرجت بها من عندنا ؟ » فقال :

غرقت وسائر من كان معى ، فسلمت بحشاشة[1] نفسى فى جزائر الهند . فتلقانى قوم فيها وجاءوا بى إلى ملكهم . فقال لى : « قد نفدت الموهبة الخارجة عنك فما معك من الموهبة الثابتة عليك ؟ » قلت : « معى الكتاب والحساب » . فقال الملك : « ما بقى لك أفضل من الذى ذهب منك ! والصواب أن تعلم ابنى الكتاب بالعربية والحساب ، فأرجو أن نعوضك أكثر مما فقدته » . وسلم إلى من ابنه أذكى صبى وألطفه . فتعلم فى مدة يسيرة ما يتعلمه غيره فى مدة طويلة .

فلما رأى أنه قد توجه واستحققت منه الإحسان ، صار إلى صاحب الملك ، فقال : « معى هدية من الملك إليك » . وأدخل إلى بقرة فتية . ثم قال : « أدفعها لك إلى الراعى؟ » فقلت : « افعل » . وصغر فى عينى أمر الملك على عظم شأنه . فما مضى زمن قصير حتى جاء الراعى . فقال : « ماتت البقرة » . واستقبلنى خاصة الملك بالتغمغم[2] . ثم ظهر فى ابنه تزيد[2] ، فبعث إلى ببقرة فتية

أخرى ، فرددتها إلى الراعى . فما مضت مدة يسيرة حتى وافى يبشرنى ، فقال : « قد حملت البقرة » . فلما انتهى حملها وضعت ، فهنأنى حاشية الملك بأسرهم . ثم جلس الملك مجلسا عاما ، وأحضر التجارة التى رأيتموها معى .

ثم قال : « لم يذهب على ما يجب لك فى تعليم ابنى ، ولم أبعث بالبقرة الأولى لفضل البقرة عندى ، ولكن نزلت بك محنة فى البحر أتت على مالك فامتحنت بالبقرة ما أنت عليه منها . وعلمت أنى لو أعطيتك جميع ما ملكت يدى ، وقد بقى منها شىء ، لضاع منك وهلك لديك . فلما أخبرت أنها ماتت علمت أنك فيها . ثم امتحنت أمرك بالبقرة الثانية ، فلما أخبرت أنها قد حملت علمت أنها قد انحسرت عنك . فسررت لك بذلك . واستظهرت[٣] بانتظار الولادة . فلما ولدت شخصا كاملا صحيح الأعضاء ، علمت أنك قد فارقت محنتك . وهذا ما أعددته لك » .

ثم وصلنى بطيب قومته بعشرين ألف دينار . وحملنى فى البحر ، فسلمت ، وزاد بأرض العرب ثمنه على ما قومته .

قال منصور : « فرأيته قد أيسر بعد الخلة والتلفيق فى المعاش[٤] » .

* * *

(١) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح والغريق ونحوهما .

(٢) تزيد : تقدم فى العلم .

(٣) استظهرت : استوثقت .

(٤) الخلة : الحاجة . والتلفيق فى المعاش : جمع الرزق من طرق متعددة ، لأن طريقة واحدة لا تكفى صاحبها .

قابلة خمارويه وأختها

حدثتني أم آسية ، قابلة أولاد خمارويه بن طولون (وكان لها دين ، ومذهب جميل ، ومحل لطيف من خمارويه) ، وقد تذاكرنا لطف الله ، عز وجل ، فى أرزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم :

إنه تزوجها وأختها أخوان . فأقبلت حال زوج أختها ، وأدبرت حال زوجها . قالت : وتوفى زوجها بأسوإ حالة ، وخلف لها بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله . وتوفى زوج أختها ، وقد خلف من العيش والمساكن والأوانى لولد أختها . قالت : فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت : أقرضينى كذا وكذا استحياء من أن أقول لها : هبى لى . ودخل شهر رمضان ، فلما مضى نصفه اشتهوا على صبيانى حلواء فى العيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : « أقرضينى دينارا أعمل به للصبيان حلواء فى العيد » . فقالت : « يا أختى تغيظيننى بقولك : أقرضينى ، وإذا أقرضتك من أين تعطينى ؟ أمن غلة دورك أو بستانك ؟ لو قلت : هبى لى ، كان أحسن » . فقلت لها : « أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب » . فتضاحكت وقالت : « يا أختى ! هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوكى[1] ! » . فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى .

وكان فى جوارنا خادم أسود لبنت اليتيم امرأة خمارويه. فلما بلغت حارتنا قال لى : « فى جوارنا امرأة تطلق ، قد أوجعت قلبى ! ادخلى إليها فليس لها قابلة » . قالت أم آسية : ووالله ما عانيت ممخوضة قط ! فدخلت إليها ، فمسحت جوفها ، وأجلستها كما كان القوابل يجلسننى فى طلق ، فولدت من ساعتها . فلما أمسك صياحها ، جاء الخادم يسأل عنها . فقلت : « قد ولدت » . فعجب من سرعة أمرها ، وظن أن هذا شىء قد اعتمدته بحذق صناعة ، ولطف فى مهنة . فمضى إلى سته بنت اليتيم ، وكانت مقربا[2] بأول ولد حمل لأبى الجيش ، وقد عرض عليها قوابل استثقلتهن . فقال : « فى جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة فى حارتنا تطلق ، فوضعت يدها على جوفها ، فسقط ولدها » . ووصفنى بما لا يوجد فى قدرة أحد إلا بالله[3] عز وجل . فقالت للخادم : «إذا كان غد فجئنى بها » . فأتى الغلام ودعانى إلى مولاته ، فأجبت بانشراح صدر وثقة بالله تعالى . فاستخفت روحى وقالت : « إلى التمام تقدير الله تبارك وتعالى » .

ثم شكت مغسا تجده المقرب ، فأدخلت يدى فى ثيابها ، ومسحت جوفها ، وعججت[4] إلى الله تعالى فى سرى بتوفيق . وكنت أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهم أنى أرقى . فسكن ماوجدته وتبركت بى . ودخل إليها خمارويه ، وقال : « ماوجدت ؟ » فقالت : « مغسا فى جوفى ، فوضعت قابلة أردتها يدها عليه ، فزال

ما أجده » . وأخرجتنى إليه (وكان قريبا من حرمه) . فقال لى : « أرجو أن يخلصها الله عز وجل ببركتك » .

قالت أم آسية :

ودخلنا فى العشر الأواخر من شهر رمضان . وقد تمسكت من الإخلاص لله عز وجل بما لا يصل إليه من ساح فى الجبال ، خوفا من شماتة أختى بى . فلم تمض إلا ثلاثة أيام حتى مخضت ، فأجلستها على كرسى الولادة (وكان مقدار طلقها ساعتين) ، فولدت ابنا أسهل ولادة ، وأبو الجيش يقوم ويقعد ، ويذهب ويجىء . فلما ولدت ، وكانت تتوقع من الولادة أمرا عظيما ، فلما ألقته ، قالت لى : « هذا الطلق ؟ » قلت : « نعم » . فقبلت — يعلم الله — عينى من الفرح . وصاح خمارويه : « أخبرينى يا مباركة بخبرها ! » فقلت : « وحياة الأمير ، إنها فى عافية ، وقد ولدت غلاما سوى الخلق بحمد الله » . فوجه إلى بألف دينار ، وألح أبو الجيش فى النظر إليها لفرط إشفاقه عليها . فاستوقفته إلى أن نقلت حوائج الولادة ، وقلت لها : « يا سيدتى ! اضحكى فى وجهه كما ترينه » . فلما دخل إليها ضحكت فى وجهه ، فتقدم بصدقة مال كثير عنها وعن ولده .

وقالت لى أم آسية :

لما كان يوم الأسبوع (ووقع قبل العيد بيوم واحد) أمرت لى بخمس مئة دينار ، وحصل من أتباعها ألف دينار . فحصل لى ألفان



وخمس مئة دينار . وخلعت على وسائر حشمها أكثر من ثلاثين خلعة . وحمل إلى مما أعد للعيد ثلاث موائد خاصة . وانصرفت إلى منزلى ، فأرسلت إلى أختى مائدة ، ووافتنى مهنئة ، وقد تقاصر طولها . فأريتها ما حصل لى من المال والخلع والطيب ، وقلت لها : « يا أختى ! أنكرت على قولى : أقرضينى ! ومن هـذا كنت أقضيك ، فلا تستصغرى من كان الله مادته ، وعليه مدار ثقته وتفويضه » .

واكتسبت هذه المرأة بمحلها من أبى الجيش مالا كثيرا ، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة .

* * *

(١) النوكى : الحمقى .
(٢) المقرب : التى قربت ولادتها .
(٣) بالله : بمعونة الله .
(٤) عججت : رفعت صوتى بالدعاء الى الله .

أصداء الماضى

مختصر العجائب والغرائب كتاب عربى مجهول المؤلف والتاريخ ، يعزى أحيانا إلى المسعودى المؤرخ (ت ٩٥٦). ونكاد نقطع بأنه مكتوب فى مصر ، ولعل زمنه بعد القرن الحادى عشر ، وهو يضم خليطا من الحقائق والخرافات ، يبرز فيه العنصر الأخير ، متصلا بعجائب الجغرافية والتاريخ . ولا يزال النص مخطوطا ، ولكن نشر كارادى فو Carra de vaux ترجمة فرنسية منه فى ١٨٩٨ . ويفرد أكثر من نصف الكتاب لعجائب مصر ، وأغلبها وصف أسطورى لتاريخ مصر قبل مجىء العرب . ويبدو أن التاريخ الحقيقى لمصر القديمة كان قد نسى كل النسيان حينئذ ، ويقنع مؤلف المختصر بمجموعة من الغرائب والأساطير التى يبدو أنه استقاها من المأثورات والمدونات القبطية . ويردد جميع مؤرخى مصر الإسلامية تقريبا هذا التاريخ الخرافى ، بحوادثه الغريبة ووقائعه غير الطبيعية ، ولم يعد إلى المصريين الفصول الضائعة من تاريخهم إلا دراسات العلماء الأوربيين فى القرن التاسع عشر .

و « التاريخ المصرى » لمرتضى بن الخفيف كتاب آخر من الصنف نفسه . وقد نشرت ترجمة فرنسية له ، من مخطوط عربى محفوظ فى مكتبة الكردينال مازاران Mazarin ، فى ١٦٦٦ على يد بيير فاتيير Pierre Vattier ، « الدكتور فى الطب ، والمحاضر وأستاذ الملك فى اللغة العربية » . وأخرج دافيز Y. Davies من

كدولى ترجمة إنجليزية عن الفرنسية فى ١٦٧٢ ، تحت عنوان : « التاريخ المصرى ، ووصف الأهرام ، وفيضان النيل ، وعجائب مصر الأخرى ، وفقا لآراء العرب ومأثوراتهم ، الذى دونه أصلا مرتضى بن الخفيف باللسان العربى » .

وما يعرف عن مؤلف الكتاب قليل ، وإن بدا من الشواهد الداخلية أنه كان مصريا من أهل القرن الثالث عشر . وقد اختفى النص العربى الذى بنى عليه فاتير ترجمته ، للمصادفة الغريبة ، ولما كنا لا نعرف له مخطوطا آخر لم يبق الكتاب إلا فى الترجمات الفرنسية والإنجليزية .

وقد ترجمت المقتطفات التالية من « مختصر العجائب والغرائب » من مخطوط من النص العربى محفوظ فى مكتبة بدليان ، بأكسفورد . أما الفقرات المأخوذة من « التاريخ المصرى » فمن ترجمة دافيز .

التمثال الذى فضح الفحش

صنع الملك منقاءوس صورة طائر سحرى ، ذى جناحين منشورين ، من النحاس المذهب ، ووضعه على عمود فى وسط المدينة . فلا يمر به أى زان أو زانية إلا فضح إثمه . واختبر الناس به ، فامتنعوا عن الزنا خوفا منه . وظلوا كذلك إلى عهد الملك كلكن[1] ، الذى أفقده خاصيته ودمرها .

وهاك ما حدث : كان من زوجاته امرأة خائنة ، إذ كانت تعشق أحد خدم الملك . وخافت أن يبلغ ذلك مسامع الملك ، فيختبرها أمام التمثال . فصممت أن تفكر فى حيلة تتجنب بها الفضيحة . وفى ذات ليلة ، والملك عندها ، وهما يشربان معا ، أخذت تتحدث عن الفاجرات ، لائمة ومؤنبة . وذكر الملك هذا التمثال ، ونفعه للناس ، وما يستحقه من إطراء وشكر . فقالت : « الأمر كذلك ، وصدق الملك ، ولكن منقاءوس لم يصب فى فعله » . فسأل : « كيف ذلك ؟ » فأجابت : « لقد شغل نفسه وحكماءه فى القيام بما ينفع العامة ، ولم يفكر فى منفعته الخاصة . وذلك مما يؤخذ على العصر القديم . فالعمل الحكيم أن يقيم الصورة فى مقر الملك ، بين زوجاته وجواريه ؛ فإذا ارتكبت إحداهن إثما ، عرفها الملك وعاقبها سرا ، دون أن يعرف العامة شيئا ، وعاق ذلك كل من همت بفاحشة فى قصره ، ولو مرة واحدة

فى حياتها . إذ أن شهوة النســاء أقوى وأكثر ترددا من شهوة الرجال ، لأن عقولهن أضعف . أما لو حدث الآن ذلك فى قصر الملك (أعاذه النور الأعلى) ، فإن الاختبار يجلب الخزى على الملك نفسه ويشيع الخبر بين العظيم والحقير على سواء . وإن عاقب بدون اختبار ، جار ، وإن فعل ، أذنب » .

قال الملك : « صدقت فيما قلت » . واعتبر قولها نصيحة حسنة وقولا صادقا ، معتقدا أنها تومئ إلى أمر تعرفه ، ولكنها لا ترغب فى الكشف عنه مباشرة . وفى الغد أزال التمثال عن مكانه وأقامه فى قصره ، فى مكان دون روية ولا استشارة أية حكيم أو عالم . وعندما أقامه فى القصر ، أجرى عدة اختبارات ، فلم تثمر شيئا . فندم الملك لإزاحته ، على حين أسلمت جاريته نفسها دون خوف للشهوات الشريرة المتغلبة عليها .

فمثل هذه الأعمال السحرية يجب ألا تعمل إلا بعد مراقبة النجوم ، واختيار وضعها الصحيح ، والوقت الملائم لها .

مختصر العجائب

(١) هذا الاسم مشكوك فى صحته .

كشف منابع النيل*

حدث الليث بن سعد ، قال : زعموا — والله أعلم — أن رجلا من ولد العيص يقال له : حائذ بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، خرج هاربا من ملك من ملوكهم ، إلى أرض مصر . فلما رأى عجائب نيلها وما يأتى به ، نذر لله نذرا ألا يفارق ساحله حتى يرى منتهاه ، أو ينظر من أين مخرجه ، أو يموت قبل ذلك .

فسار عليه ثلاثين سنة فى العمران ، ومثلها فى غير العمران ، وبعضهم يقول : خمسة عشر كذا وخمسة عشر كذا ، حتى انتهى إلى بحر أخضر ، فنظر إلى النيل يشقه مقبلا . فجعل ينظر إلى ذلك ، فإذا هو برجل قائم يصلى تحت شجرة تفاح . فلما رآه استأنس به ، فسلم عليه . فسأله صاحب الشجرة عن اسمه وخبره وما يطلب . فقال له : « أنا حائذ بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، فمن أنت ؟ » قال : « أنا عمران بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، فما الذى جاء بك إلى ها هنا ، يا حائذ ؟ » قال : « أردت علم أمر النيل ، فما الذى جاء بك أنت ؟ » قال : « جاء بى الذى جاء بك ، فلما انتهيتُ إلى هذا

* ح : القصة موجودة أيضا فى « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » لابن الوردى ، ص ١٠٣ ، المطبعة التليانية ١٨٨٩ م . واسم بطل القصة تختلف فيه بين حائذ ، وحائد ، وجائد .

الموضع أوحى الله تعالى إلىّ : أن قف بمكانك حتى يأتيك أمرى . »
قال : « فأخبرنى ، يا عمران ، أى شىء انتهى إليك من أمر هذا النيل ؟ وهل بلغك أن أحدا من بنى آدم يبلغه ؟ » قال : « نعم ، بلغنى أن رجلا من بنى العيص يبلغه ، ولا أظنه غيرك ، يا حائذ . » فقال له : « يا عمران ، كيف الطريق إليه ؟ » قال له عمران : « لستُ أخبرك بشىء حتى تجعل بيننا ما أسألك . » قال : « وما ذاك ؟ » قال : « إذا رجعتَ وأنا حىّ ، أقمتَ عندى حتى يأتى ما أوحى الله لى : أن يتوفانى ، فتدفننى وتمضى . » قال : « ذلك على . » قال : « سر كما أنت سائر ، فإنه ستأتى دابة ترى أولها ولا ترى آخرها ، فلا يهولنك أمرها فإنها دابة معادية للشمس ، إذا طلعت أهوت إليها لتلتقمها ، فاركبها فإنها تذهب بك إلى ذلك الجانب من البحر . فسر عليه ، فإنك ستبلغ أرضا من حديد ، جبالها وشجرها وجميع ما فيها حديد . فإذا جزتها وقعت فى أرض من فضة ، جبالها وشجرها وجميع ما فيها من فضة . فإذا تجاوزتها وقعت فى أرض من ذهب ، جميع ما فيها من ذهب . ففيها ينتهى إليك علم البحر .

فودعه ومضى ، وجرى الأمر على ما ذكر له ، حتى انتهى إلى أرض الذهب ، سار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب ، وعليه قبة لها أربعة أبواب . وإذا ماء كالفضة ينحدر من فوق ذلك السور ، حتى يستقر فى القبة ثم يتفرق فى الأبواب ، وينصب إلى الأرض ،



فأما ثلاثة* فتغيض ، وأما واحد فيجرى على وجه الأرض ، وهو النيل . فشرب منه واستراح . ثم حاول أن يصعد السور ، فأتاه ملك وقال : « ياحائذ ، قف مكانك ، فقد انتهى إليك علم ما أردته من علم النيل . وهذا الماء الذى تراه ينزل من الجنة ، وهذه القبة بابها . فقال : « أريد أن أنظر إلى ما فى الجنة » فقال : « إنك لن تستطيع دخولها اليوم ، يا حائذ ! » قال : « فأى شىء هذا الذى أرى ؟ » قال : « هذا الفلك الذى تدور فيه الشمس والقمر . » وهو شبه الرحى . قال : « أريد أن أركبه فأدور فيه » . فقال له الملك : « إنك لن تستطيع اليوم ذلك . » [يقول البعض إنه ركبه فى حياته ، ويقول غيرهم إنه لم يركبه] ثم قال : « إنه سيأتيك رزق من الجنة ، فلا تؤثر عليه شيئا من الدنيا ، فإنه لا ينبغى لشىء من الجنة أن يؤثر عليه شىء من الدنيا . » فبينما هو واقف ، إذ أنزل عليه عنقود من عنب ، فيه ثلاثة أصناف : صنف كالزبرجد الأخضر ، وصنف كالياقوت الأحمر ، وصنف كاللؤلؤ الأبيض ؛ ثم قال : « يا حائذ ، هذا من حصرم الجنة ليس من بالغ عنبها ، فارجع فقد انتهى إليك علم النيل . » [فسأل حائذ : ما هذه الأنهار الثلاثة التى تختفى فى الأرض ؟ » قال الملك . « أحدها الفرات ، والثانى سيحون ، والثالث جيحون » (1)]

فرجع حتى انتهى إلى الدابة فركبها . فلما أهوت الشمس

---

* ح : فى معجم البلدان : ثلثاه ، خطأ .

إلى الغروب ، أهوت إليها لتلتقمها ، فقذفت به إلى جانب البحر الآخر . فأقبل حتى انتهى إلى عمران . فوجده قد مات فى يومه ذاك ، فدفنه وأقام على قبره . فلما كان فى اليوم الثالث أقبل شيخ كبير كأنه بعض العباد . فبكى على عمران طويلا ، وصلى على قبره ، وترحم عليه . ثم قال : « يا حائذ ، ما الذى انتهى إليك من علم النيل ؟ » فأخبره . فقال : « هكذا نجده فى الكتاب » . ثم التفت إلى شجرة تفاح هناك ، فأقبل يحدثه ويطرى تفاحها فى عينه . فقال له حائذ : « ألا تأكل معى ؟ رزقى من الجنة ؛ ونهيت أن أوثر عليه شيئا من الدنيا » . فقال الشيخ : « هل رأيت فى الدنيا شيئا مثل هذا التفاح ؟ إنما هذه شجرة أنزلها الله لعمران من الجنة ليأكل منها ، وما تركها إلا لك . ولو أكلت منها وانصرفت لرُفعت » . فلم يزل يحسنها فى عينه ويصفها له ، حتى أخذ منها تفاحة ، فعضها ليأكل منها ، فلما عضها عض يده ، ونودى : « هل تعرف الشيخ ؟ » قال : « لا » . قيل : « هذا الذى أخرج أباك آدم من الجنة ، أما إنك لو سلمتَ بهذا الذى معك ، لأكل منه أهل الدنيا فلم ينفد » .

فلما وقف حائذ على ذلك وعلم أنه إبليس ، أقبل حتى دخل مصر . فأخبرهم بخبر النيل ، ومات بعد ذلك .

« ياقوت : معجم البلدان ، مادة النيل »

(١) زيادة من النص الانجليزى ، ومعلق عليها فيه بما يلى : انظر سفر التكوين ٢ : ٨ — ١٤ ، يطلق العرب اسمى سيحون وجيحون عادة على نهرى بلاد ما وراء النهر — ح .

قصص عجيبة عن الأهرام

بعد فتح الهرم ، دفع حب الاستطلاع الناس إلى دخوله سنين ، فدخله كثيرون ، عاد بعضهم دون أية مشقة ، وهلك غيرهم فيه . واتفق ذات يوم أن أقسم جماعة من الشبان (يزيد عددهم على ٢٠) على دخوله ، ما لم يعقهم عائق ، وشق طريقهم إلى نهايته . فتزودوا بطعام وشراب يكفيهم شهرين : وأخـذوا رقائق من الحديد وقضبانا ، وشموعا ومصابيح ، وثقابا وزيتا وفئوسا ، وخطاطيف ، وغيرها من الأدوات الحادة ، ودخلوا الهرم : وهوى معظمهم منذ الدرجة الأولى والثانية ، ووقعوا على أرض الهرم ، حيث رأوا خفافيش كبيرة فى حجم العقبان السود ، أخذت تضرب وجوههم فى عنف شديد . ولـكنهم تحملوا هذه المشقة فى كرم خلق ، وتقدموا حتى وصلوا إلى ممر ضيق ، هبت فيه ريح عنيفة ، غير عادية البرودة ؛ ولـكنهم لم يستطيعوا أن يدركوا من أين تأتى ، ولا أين تذهب . وتقدموا ليلجوا المـكان الضيق ، فأخذت شموعهم تنطفىء ، فأرغموا على وضعها فى مصابيحهم . ثم دخلوا ، ولـكن المـكان بدا متصلا ومسدودا أمامهم . فقال أحدهم للباقين : « اربطوا وسطى بحبل ، وسأتقدم ، فإن وقع لى أى حادث ، اجذبونى حالا » . وكان على مدخل المكان الضيق أوعية فارغة كبيرة كأنها النعوش ، أغطيتها بجوارها : فاستنتجوا أن من وضعوها

هناك أعدوها لموتهم ؛ وأن من الضرورى اختراق هذا المكان الضيق للحصول على ذخائرهم وثروتهم . فربطوا رفيقهم بحبال ؛ ليخاطر بدخول ذلك الممر ؛ ولكن الممر انطبق عليه فى الحال ، وسمعوا صوت تهشم عظامه : فجذبوا الحبال ، ولكنهم لم يستطيعوا إرجاعه . ثم سمعوا صوتا مخيفا صادرا من الكهف ، أرعبهم فغشى عليهم . ثم أفاقوا بعد مدة ، وحاولوا الخروج ، غير عارفين ماذا يفعلون . وأخيرا رجعوا بعد مشقة عظيمة ، عدا من هوى منهم من الزلاقة . وعندما خرجوا إلى السهل جلسوا مجتمعين ، يتعجبون جميعا مما رأوا ، ويفكرون فيما وقع لهم ؛ إذ انشقت الأرض أمامهم ، وأخرجت صاحبهم الميت ، لا حراك به أولا ، ولكنه أخذ يتحرك بعد ساعتين ، وكلمهم بكلام لم يعرفوه ، لأنه لم يكن عربيا . وبعد بعض الوقت فسره لهم بعض أهل الصعيد ، فقال لهم إن معناه : هذا جزاء من طلب ما ليس له . ثم سقط رفيقهم ميتا كما كان قبلا ، فدفنوه فى ذلك الموضع . ومات بعضهم فى داخل الهرم . ولما سمع حاكم تلك البقاع بخبرهم ، استدعاهم ، ورووا له الخبر ، فتعجب كثيرا .

ويروى تاريخ آخر : أن بعض الناس دخلوا الهرم ، ووصلوا إلى أوطى جزء منه ، فداروا حوله . فظهر لهم مكان أجوف ، فيه ممر مسلوك ، اخذوا يسيرون فيه . ثم وجدوا حوضا ، يقطر منه ماء عذب ، ويقع فى عدة حفر تحت الحوض ، ولم يعرفوا من

أين يأتى ، ولا أين يذهب . ثم وجدوا صالة مربعة ، جدرانها من أحجار غريبة متعددة الألوان . وأخذ أحدهم حجرا صغيرا ووضعه فى فيه ، فصمت أذناه فى الحال . ثم أتوا على موضع على هيئة الصهريج مملوء بالعملة الذهبية الشبيهة بالكعك الكبار ؛ لأن القطعة منها تزن ١٠٠٠ درهم . فأخذوا بعضها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا إلا بعد أن أعادوها إلى الموضع الذى أخذوها منه . ثم وجدوا موضعا آخر فيه مصطبة كبيرة ، كالتى تكون عادة أمام المنازل ليجلس عليها الناس ؛ وعلى المصطبة تمثال من الحجر الأخضر ، يمثل رجلا قديما طوالا جالسا ، يرتدى جلبابا فضفاضا ، وأمامه تماثيل صغيرة ، كأنما هم صبية يعلمهم : فأخذوا بعض هذه التماثيل ، ولكنهم لم يستطيعوا الخروج إلا بعد أن غادروها وراءهم . وتقدموا فى نفس الطريق ، فسمعوا صوتا مرعبا وضجة عظيمة ، لم يجرءوا على الاقتراب منها . ثم تقدموا ، فعثروا على مكان مربع ، كأنما أعد لمجلس كبير ، كان فيه عدة تماثيل ، منها تمثال ديك من الذهب الأحمر : وكان تمثالا مرعبا ، مرصعا بالياقوت ، الموجود منه فصان كبيران فى العينين ، اللتين تبصان كأنهما مصباحان كبيران : فاقتربوا منه ، فصاح صيحة مرعبة ، وشرع يضرب بجناحيه فسمعوا عدة أصوات صادرة من كل ناحية . فاستمروا فى تقدمهم ، فوجدوا صنما من الحجر الأبيض ، مع تمثال امرأة واقفة على رأسها ، ويرقد على كل جانب من جوانبها أسدان من الحجر

الأبيض ، يبدو أنها تزأر وتوشك أن تنقض . فسبحوا الله وتقدموا ، وظلوا على سيرهم إلى أن رأوا ضوءا ؛ خرجوا بعده إلى موضع مفتوح ، فتبينوا أنهم فى صحراء رملية عظيمة . وعلى الممر خارج ذلك المكان المفتوح تمثالان من الحجر الأسود ، فى أيديهما أنصاف حراب . فدهشوا كل الدهشة ، ثم أخذوا فى العودة شرقا ، إلى أن اقتربوا من الأهرام من خارجها . وقد وقع ذلك فى أيام يزيد Yezid بن عبد الملك Gabdolmelic بن عبدل Gabdal ، والى مصر[1]، الذى عندما سمع بالخبر بعث بعض الرجال مع من كنا نتكلم عنهم لمراقبة الموضع المفتوح من الهرم . فبحثوا عنه عدة أيام ، فلم يستطيعوا العثور عليه ثانية ، فاستحمقوا . ولكنهم أروه فص خاتم ، كان أحدهم أخذه من قاعة الاجتماع ، التى وجدوها فى الهرم ، فاضطر إلى تصديق ما قالوا . وقد قدر هذا الفص بمبلغ كبير من المال .

ويروى أيضا ، أن غيرهم فى عهد القائد أحمد بن طولون (رحمه الله) دخلوا الهرم بطريقة مماثلة ، ووجدوا فيه وعاء من الزجاج الأحمر ، أخذوه معهم . وإذ خرجوا افتقدوا أحدهم ، فاضطروا إلى العودة للبحث عنه . فوجدوه متيبسا عاريا دائم الضحك . ويقول لهم : «لا تجشموا أنفسكم عناء البحث عنى» . ثم ولى عنهم ، ودخل فى الهرم . فاستنتجوا أن الأرواح خبلته ، فخرجوا وتركوه فيه . فاتهموا أمام القاضى ، الذى حكم عليهم بعقاب رادع ،

وانتزع منهم الوعاء ، الذى كان فيه أربعة أرطال من الزجاج . وقال شخص : « إن الوعاء لم يكن فى ذلك الموضع لغير سبب » . فملىء بالماء ، ثم وزن ثانية ، فكان وزنه مملوءا مماثلا لوزنه فارغا ، ولم يزد شيئاً . فطرحوا بعض الماء على عدة مرات ، ولكن وزن الإناء بقى كما هو . فخمنوا أنه أحد أوعية الخمر التى كان يستعملها القدماء ، وصنعه حكماؤهم لهذا الغرض ، ووضعوه هناك . لأن الخمر كانت مباحة عندهم . وكان ذلك معجزة غريبة .

ويروون أيضا عدة قصص من هذا اللون ، ومنها أن بعض الناس دخلوا الهرم مع غلام للفحش به ؛ وعندما اقترفوا ذلك الإثم ، طلع عليهم شاب أسود ، فى يده هراوة ، فضربهما فى عنف ، جعلهم يهربون تاركين لحمهم وملابسهم . وحدث الأمر نفسه لجماعة أخرى فى هرم إخميم . فقد دخل فى هرم إخميم رجل وامرأة لينالا متعتهما فيه ؛ ولكنهما طرحا على الأرض فى الحال ، واختل عقلهما .

« من التاريخ المصرى »

جورياق وجيرون*

لما جلست جورياق ابنة طوطيس ، أول فراعنة مصر ، وهو فرعون إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، على سرير الملك ، بعد قتلها لأبيها ، وعدت الناس بالإحسان . وأخذت فى جمع الأموال . فاجتمع لها ما لم يجتمع لملك . وقدمت الكهنة ، وأهل الحكمة ، ورؤساء السحرة ، ورفعت أقدارهم . وأمرت بتجديد الهياكل . وصار من لم يرضها إلى مدينة أتريب ، وملكوا عليهم رجلا من ولد أتريب ، يقال له ايداخس** . فعقد على رأسه تاجا ، واجتمع إليه جماعة . فأنفذت إليه جيشا فهزموه وقتلوا أكثر أصحابه . فهرب إلى الشام وبها الكنعانيون ، فاستغاث بملكهم . فجهزه بجيش عظيم .

وتقدم ايداخس بجيوش الكنعانيين ، وعليها قائد منهم يقال له جيرون . فلما نزلوا أرض مصر ، بعثت ظئرا لها من عقلاء النساء إلى القائد ، سرا عن ايداخس ، تعرفه رغبتها فى تزوجه ، وأنها لا تختار أحدا من أهل بيتها ، وأنه ، إن قتل ايداخس ، تزوجت به ،

---

* ح : بطلا القصة فى النص الانجليزى الملكة Charoba وجبير المؤتفكى ، ويوافق الاسم الأخير ما فى معجم البلدان لياقوت ، الذى لم يذكر اسم البطلة ، وأورد القصة مختصرة مخلة ، فآثرت عليه نص الخطط ، على الرغم من اختلاف الأسماء ، لأن نص القصة واحد تقريبا فيه وفى النص الانجليزى .

** ح : قصة ايداخس غير موجودة فى النص الانجليزى ، كذلك لا يذكر بناء قيدومة .

وسلبته ملك مصر . ففرح بذلك وسم ايداخس بسم أنفذته إليه ، فقتله . وبعثت إليه بعد قتل ايداخس : أنه لا يجوز أن أتزوجك حتى يظهر قومك فى بلدى ، وتبنى لى مدينة عجيبة . وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان ، وإقامة الأعلام ، وعمل العجائب . وقالت : « انتقل من موضعك إلى غربى بلدى ، فثم آثار لنا كثيرة . فاقتف تلك الأعمال وابن عليها » . ففعل وبنى مدينة فى صحراء الغرب يقال لها قيدومة . وأجرى إليها من النيل نهرا . وغرس حولها غروسا كثيرة . وأقام بها منارا عاليا ، فوقه منظر مصفح بالذهب ، والفضة ، والزجاج ، والرخام . وهى تمده بالأموال ، وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه ، وهو لا يعلم . فلما فرغ منها ، قالت له : « إن لنا مدينة أخرى حصينة كانت لأوائلنا ، وقد خربت منها أمكنة ، وتشعث حصنها . فامض إليها واعمل فى إصلاحها ، حتى أنتقل أنا إلى هذه المدينة التى بنيتها . فإذا فرغت من إصلاح تلك المدينة ، فأنفذ إلى جيشك حتى أصير إليك ، وأبعد عن مدينتى وأهل بيتى . فإنى أكره أن تدخل على بالقرب منهم » . فمضى وجد فى عمل الإسكندرية الثانية .

وأهل التاريخ يذكرون : أن الذى قصدها الوليد بن دومع العمليق ، ثانى الفراعنة . وكان سبب قصدها أنه كان به علة ، فوجه إلى الأقطار ليحمل إليه من مائها حتى يرى ما يلائمه . فوجه إلى مملكة مصر غلاما ، فوقف على كثرة خيراتها ، وحمل

إليه من مائها وألطافها ، وعاد إليه فعرفه حال مصر . فسار إليها في جيش كثيف . وكاتب الملكة يخطبها لنفسه . فأجابته وشرطت عليه أن يبنى لها مدينة ، يظهر فيها أيده وقوته ، ويجعلها لها مهرا . فأجابها وشق مصر إلى ناحية الغرب . فبعثت إليه أصناف الرياحين والفواكه ، وخلقت وجوه الدواب .

فمضى إلى الاسكندرية ، وقد خربت بعد خروج العادية منها . فنقل ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها . ووضع أساس مدينة عظيمة . وبعث إليها مئة ألف فاعل . وأقام فى بنائها مدة ، وأنفق جميع ما كان معه من المال . وكلما بنى شيئا ، خرج من البحر دواب فتقلعه . فإذا أصبح لم يجد من البناء شيئا ، فاهتم لذلك .

وكانت جورياق قد أنفذت إليه ألف رأس من المعز اللبون ، يستعمل ألبانها فى مطبخه . وكانت مع راع يثق به ، يرعاها هنالك . فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء ، خرجت إليه من البحر جارية حسناء ، فتتوق نفسه إليها . فإذا كلمها ، شرطت عليه أن تصارعه . فإن صرعها كانت له ، وإن صرعته أخذت من المعز رأسين . فكانت طول الأيام تصرعه وتأخذ الغنم ، حتى أخذت أكثر من نصفها ، وتغير باقيها لشغله بحب الجارية عن رعيها ، ونحل جسمه .

فمر به صاحبه وسأله عن حاله . فأخبره الخبر خوفا من سطوته . فلبس ثياب الراعى وتولى رعى الغنم يومه إلى المساء . فخرجت

إليه الجارية وشرطت عليه الشرط . فأجابها وصارعها فصرعها ، وشدها . فقالت : « إن كان ولا بد من أخذى ، فسلمنى لصاحبى الأول ، فإنه ألطف بى وقد عذبته مدة » . فردها إليه ، وقال له : « سلها عن هـذا البنيان الذى نبنيه ويزال من ليلته : من يفعل ذلك ؟ وهل فى ثباته حيلة ؟ » فسألها الراعى عن ذلك ، فقالت* : « إن دواب البحر التى تنزع بنيانكم » . فقال : « فهل من حيلة ؟ » قالت : « نعم ! تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية ، وتجعلون فيها أقواما يحسنون التصوير ، ويكون معهم صحف وأنقاش وزاد يكفيهم أياما . وتحمل التوابيت فى المراكب بعد ما تشد بالحبال . فإذا توسطوا الماء ، أمروا المصورين أن يصوروا جميع مايمر بهم . ثم ترفع تلك التوابيت . فإذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها أشباها ، من صفر أو حجارة أو رصاص ، وانصبوها قدام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر . فإن تلك الدواب إذا خرجت ورأت صورها ، هربت ولم تعد » . فعرف الراعى صاحبه ذلك . ففعله ، وتم البنيان ، وبنى المدينة .

وقال قوم** : إن صاحب البناء والغنم هو جيرون ، كان قصدهم قبل الوليد ، وإنما أتاهم الوليد بعد جورياق ، وقهرهم وملك

---

* زاد الأصل الانجليزى أنها قالت له : اعلم ، أيها الأمير العظيم ، أن مصر أرض السحرة ، وأن بحرها ملىء بالأرواح والشياطين ، التى تساعدهم على اتمام شئونهم ؛ ومن هذه العبارة أخذ جامع القصص عنوان كتابه .

** لا يوجد فى النص الانجليزى خبر الكنز . والصفر : النحاس الأصفر . والنواويس : القبور . والذرور : المسحوق .

مصر . وذكروا أن الأموال التى كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة ، ولم تتم . فأمر الراعى أن يخبر الجارية . فقالت : « إن فى المدينة التى خربت ملعبا مستديرا ، حوله سبعة عمد ، على رءوسها تماثيل من صفر قيام . فقرب لكل تمثال منها ثورا سمينا ، ولطخ العمود الذى تحته من دم الثور . وبخره بشعر من ذنبه ، وشىء من نحاتة قرونه وأظلافه . وقل له : « هذا قربانك ، فأطلق لى ما عندك » . ثم قس من كل عمود إلى الجهة التى يتوجه إليها وجه التمثال مئة ذراع ، واحفر عند امتلاء القمر واستقامة زحل . فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة عظيمة ، فلطخها بمرارة الثور وأقلها . فإنك تنزل إلى سرب طوله خمسون ذراعا ، فى آخره خزانة مقفلة ، ومفتاح القفل تحت عتبة الباب . فخذه ، والطخ الباب ببقية المرارة ودم الثور وبخره بنحاتة قرونه وأظلافه وشعر ذنبه ، وادخل . فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوح صفر ، مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة . فخذ ما شئت ، ولا تعترض ميتا تجده ولا ما عليه ، وكذلك كل عمود وتمثاله ، فإنك تجد مثل تلك الخزانة . وهذه نواويس سبعة من الملوك وكنوزهم » .

فلما سمع ذلك سر به وامتثله ، فوجد ما لا يدرك وصفه ، ووجد من العجائب شيئا كثيرا . فتم بناء المدينة . وبلغ ذلك جورياق فساءها وكانت قد أرادت إتعابه وهلاكه بالحيلة . ويقال : إنه وجد ، فيما وجد ، درجا من ذهب مختوما ، فيه مكحلة زبرجد ، فيها ذرور

أخضر ، ومعها عرق أحمر ؛ من اكتحل من ذلك الذرور بالعرق ، وكان أشيب ، عاد شابا ، واسود شعره ، وأضاء بصره حتى يدرك الروحانيين . ووجد تمثالا من ذهب ، إذا ظهر غيمت السماء وأمطرت ؛ ومثال غراب من حجر ؛ إذا سئل عن شيء صوت وأجاب عنه . ووجد فى كل خزانة عشر أعجوبات .

فلما فرغ من بناء المدينة ، وجه إلى جورياق يحثها على القدوم إليه . فحملت إليه فرشا فاخرا ، ليبسطه فى المجلس الذى يجلس فيه ، وقالت له : « اقسم جيشك أثلاثا : فأنفذ إلى ثلثه حتى إذا بلغت ثلث الطريق فأنفذ الثلث الآخر ، فإذا جزت نصف الطريق فأنفذ الثلث الباقى ، ليكونوا من ورائى لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك ، ولا يكون عندك إلا صبية تثق بهم يخدمونك . فإنى أوافيك فى جوار تكفيك الخدمة ، ولا أحتشمهن » . ففعل . وأقامت تحمل الجهاز إليه والأموال حتى علم سيرها فوجه إليها ثلث جيشه . فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة . وأنزلهم جواريها وحشمها ، وقدموا إليهم الأطعمة والأشربة والطيب وأنواع اللهو . فلم يصبح منهم أحد حيا . وسارت فلقيها الثلث الآخر ، ففعلت به مثل ذلك ، وهى توجه إليه أنها أنفذت جيشه إلى قصرها وملكتها يحفظونهما* .

---

* ح : وكذا سمت القسم الثالث من الجيش .

وسارت حتى دخلت عليه هى وظئرها وجواريها فنفخت ظئرها فى وجهه نفخة بهت إليها . ورشت عليه ما كان معها فارتعدت أعضاؤه . وقال : « من ظن أنه يغلب النساء ، فقد كذبته نفسه وغلبته النساء » . ثم إنها فصدت عروقه ، وقالت : « دماء الملوك شفاء » . وأخذت رأسه ، ووجهت به إلى قصرها ، ونصبته عليه . وحولت تلك الأموال إلى مدينة منف . وبنت منارا بالإسكندرية ، وزبرت عليه اسمها واسمه ، وما فعلت به ، وتاريخ الوقت* . فلما بلغ خبرها الملوك ، هابوها وأطاعوها وهادوها .

« المقريزى : الخطط ١ : ١٤٤ »

---

* ح : زبر : كتب . وزاد النص الانجليزى أن جبيرا التمس منها أن تكتب العبارة التالية على أحد الأعمدة : « أنا جبير المؤتفكى ، الذى صقل الرخام ، وهذب الصلب من الحجر الأحمر والأخضر ، وامتلك الذهب والأحجار الكريمة ، وبنى القصور ، ورفع الجيوش ، واخترق الجبال ، وأوقف الأنهار بذراعه . مع كل هذه القوة ، والقدرة ، والجرأة ، والشجاعة ، غلبتنى حيلة امرأة ضعيفة ، عاجزة ، لا خطر لها ؛ سلبتنى فهمى ، وأخذت حياتى ، وهزمت جندى . فمن رغب فى الفلاح ، ولا فلاح فى الدنيا ، فليحذر حيل النساء وخدعهن . هذه النصيحة التى أقدمها لمن بعدى ، وليس لدى ما أقوله بعدها » .

١ — لعل الكاتب يخلط بين الخليفة الأموى يزيد الثانى بن عبد الملك (٧٢٠ — ٤) وأخيه عبد الله بن عبد الملك ، والى مصر ٧٠٥ — ٩ .

٢ — ترد هذه الحكايات بصورة أو أخرى فى « مختصر الفرائب » وغيره من الكتب العربية . ويشير ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الى خبر الأوعية المرسومة باعتباره من أمثلة تسرع بعض المؤرخين فى التصديق .

من ألف ليلة و ليلة

الولاة الثلاثة

ربما كان أشهر كتاب عربى فى أوربا مجموعة القصص المعروفة « بألف ليلة وليلة » . وإذ قدمت إلى الغرب فى الترجمة الفرنسية التى اضطلع بها أنطوان جلاند Antoine Galland أولا (اثنا عشر مجلدا ، باريس ١٧٠٤ — ١٧) ، حظيت بحب باق ، وظهرت عدة ترجمات ، جيدة ورديئة ، فى جميع لغات أوربا على وجه التقريب .

وكان تأليف الكتاب ، وأصله ، وزمنه ، موضوعا للنزاع بين العلماء الشرقيين مدة طويلة . وترجع أقدم إشارات إلى « الليالى » فى الكتب الأخرى إلى القرن العاشر — ولكن كثيرا من القصص لا يمكن أن يكون قد دون قبل القرن الرابع عشر أو الخامس عشر . ولا تزال توجد عدة نسخ مختلفة من المجموعة ، وهى لا تتفق فى اختيار الحكايات ولا فى ترتيبها . فقد تضخمت المجموعة تدريجيا على مر القرون ، فى داخل إطار قصة شهر زاد ، إذ أضاف إليها كل عصر وكل قطر إضافته ، ومنحها شيئا من عنده . ويبدو أن معظم النسخ المتأخرة التى وصلت إلينا محرر فى مصر ، التى تمتعت « الليالى » فيها بحب خاص زمنا طويلا . وكثير من الحكايات مصرى التأليف والأصل ، لا تخطئ العين فى تبين ذلك . ويؤسفنا أن روائع الأدب القصصى المصرى كقصة معروف الإسكاف وقصة

أبو قير وأبو صير ، أطول من أن نستطيع أن نضمنها هنا . والحكاية القصيرة التالية عن أحد سلاطين مصر من المماليك وثلاثة من حكامه من ترجمة لين Lane .

* * *

ومما يحكى أن الملك الناصر أحضر الولاة الثلاثة فى بعض الأيام : والى القاهرة ، ووالى بولاق ، ووالى مصر القديمة . وقال : « أريد أن كل واحد منكم يخبرنى بأعجب ما وقع له فى مدة ولايته » .

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح . فلما كانت الليلة الثالثة والأربعون بعد الثلاث مئة قالت :

بلغنى أيها الملك السعيد أن الملك الناصر قال للولاة الثلاثة : « أريد أن كل واحد منكم يخبرنى بأعجب ما وقع له فى مدة ولايته » . فأجابوه بالسمع والطاعة .

ثم قال والى القاهرة : « اعلم يا مولانا السلطان أن أعجب ما وقع لى فى مدة ولايتى : أنه كان بهذه المدينة عدلان يشهدان على الدماء والجراحات ، وكانا مولعين بحب النساء وشرب الشراب والفساد . وما قدرتُ عليهما بحيلة لأنتقم منهما بها ، وعجزت عن ذلك . فأوصيت الخمارين والنقليين والفكهانيين والشماعين وأرباب البيوت المعدة للفساد : أن يخبرونى بهذين الشاهدين ، متى

كانا فى مكان يشربان أو يفسدان ، سواء كانا مع بعضهما أو متفرقين ، وإن اشتريا ، أو اشترى أحدهما ، منهم شيئا من الأشياء المعدة للشراب ، فلا يخفوه عنى » . فقالوا : « سمعا وطاعة » .

فاتفق فى بعض الأيام أنه حضر إلى رجل ليلا ، وقال : « يا مولانا ! اعلم أن الشاهدين فى المكان الفلانى ، فى الدرب الفلانى ، فى دار فلان ، وأنهما فى منكر عظيم » . فقمت وتخفيت أنا وغلامى ، ومضيت إليهما منفرداً ، من غير أحد معى غير غلامى . ولم أزل ماشيا حتى وقفت على الباب وطرقته ، فأتت إلى جارية وفتحت لى الباب ، وقالت : « من أنت ؟ » فدخلت ولم أرد عليها جوابا . فرأيت الشاهدين وصاحب الدار جلوسا ، وعندهم نساء بغايا ، ومن الشراب شىء كثير . فلما رأونى قاموا إلى وعظمونى ، وأجلسونى فى صدر المقام ، وقالوا لى : « مرحبا بك من ضيف عزيز ونديم ظريف » . واستقبلونى من غير خوف منى ولا فزع .

وبعد ذلك قام صاحب الدار من عندنا ، وغاب ساعة ثم عاد ، ومعه ثلاث مئة دينار ، وليس عنده من الخوف شىء . وقالوا : « اعلم يا مولانا الوالى أنك تقدر على أكثر من هتيكتنا ، وفى يديك تعزيرنا . ولكن لا يعود عليك من ذلك إلا التعب . فالرأى أن تأخذ هذا القدر وتستر علينا ، فإن الله تعالى اسمه الستار ، ويحب من عباده الستيرين ، ولك الأجر والثواب » . فقلت فى نفسى :

« خذ هذا الذهب منهم ، واستر عليهم فى هذه المرة ، وإذا قدرت عليهم مرة أخرى فانتقم منهم » . فطمعت فى المال وأخذته منهم ، وتركتهم وانصرفت ، ولم يشعر أحد بى .

فما أشعر فى ثانى يوم إلا ورسول القاضى جاء إلىّ ، وقال : « أيها الوالى تفضل كلم القاضى ، فإنه يدعوك » . فقمت معه ومضيت إلى القاضى ، وما أعلم سبب ذلك . فلما دخلت عليه رأيت الشاهدين وصاحب الدار ، الذى أعطانى الثلاث مئة دينار ، جالسين عنده . فقام صاحب الدار وادعى على بثلاث مئة دينار . فما وسعنى الإنكار . وأخرج مسطورا ، وشهد فيه هذان الشاهدان العادلان علىّ بثلاث مئة دينار ، فثبت ذلك عند القاضى بشهادة الشاهدين . فأمرنى بدفع ذلك المبلغ . فما خرجت من عندهم حتى أخذوا منى الثلاث مئة دينار فاغتظت ونويت لهم كل السوء ، وندمت على عدم تنكيلهم . وانصرفت وأنا فى غاية الخجل . وهذا أعجب ما وقع لى فى مدة ولايتى ! »

فقام والى بولاق وقال : « وأما أنا يا مولانا السلطان ، فأعجب ما وقع لى فى مدة ولايتى أنه كمل علىّ من الدين ثلاث مئة ألف دينار . فأضرّ بى ذلك ، وبعت ما ورائى وما قدامى وما كان بيدى . فجمعت مئة ألف دينار من غير زيادة » .

وأدرك شهر زاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح . فلما كانت الليلة الرابعة والأربعون بعد الثلاث مئة قالت : بلغنى أيها الملك السعيد أن والى بولاق قال :

« بعت ما ورائى وما قدامى ، فجمعت مئة ألف دينار ، من غير زيادة ، وبقيت فى حيرة عظيمة . فبينما أنا جالس فى دارى ليلة من الليالى ، وأنا فى هذه الحال ، وإذا بطارق يطرق الباب . فقلت لبعض الغلمان : «انظر من بالباب . » فخرج ثم عاد إلى ؛ وهو معفر الوجه ، متغير اللون ، مرتعد الفرائص . فقلت له : « مادهاك ؟ » فقال : « إن بالباب رجلا عريانا ، وعليه ثياب من الجلد ، ومعه سيف ، وفى وسطه سكين ؛ ومعه جماعة على هيئته ، وهو يطلبك » . فأخذت السيف فى يدى ، وخرجت لأنظر من هؤلاء ، وإذا بهم كما قال الغلام ، فقلت لهم : « ما شأنكم ؟ » فقالوا : « إننا لصوص ، وغنمنا فى هذه الليلة غنيمة عظيمة ، وجعلناها برسمك ، لتستعين بها على هذه القضية التى أنت مهموم بسببها ، وتسد بها الدين الذى عليك » . فقلت لهم : « وأين الغنيمة ؟ » فأحضروا لى صندوقا كبيرا ، ممتلئا أوانى من ذهب وفضة . فلما رأيته فرحت ، وقلت فى نفسى : « أسد الذى على من هذا ، ويفضل لى قدر الدين مرة أخرى » . فأخذته ودخلت الدار ، وقلت فى نفسى : « ليس من المروءة أن أدعهم يذهبون من غير شىء » . فأخذت المئة ألف دينار التى كانت عندى ، ودفعتها إليهم ، وشكرت صنعهم . فأخذوا الدنانير ، ومضوا تحت الليل إلى حال سبيلهم ولم يعلم بهم أحد . فلما أصبح الصباح رأيت ما فى الصندوق نحاسا مطليا بالذهب والقزدير ، يساوى كله خمس مئة درهم . فعظم على ذلك ، وضاعت الدنانير التى كانت معى ، وازددت غما على غمى . وهذا أعجب ما جرى لى فى زمن ولايتى » .

فقام والى مصر القديمة ، وقال : « يا مولانا السلطان : وأما أنا فأعجب ما جرى لى فى مدة ولايتى أنى شنقت عشرة لصوص . وجعلت كل واحد على خشبة وحده ، وأوصيت الحراسين أنهم يحفظونهم ، ولا يتركون الناس يأخذون أحدا منهم . فلما كان من الغد ، جئت لأنظرهم . فنظرت مشنوقين على خشبة واحدة . فقلت للحراسين : « من فعل هذا ؟ وأين الخشبة التى عليها المشنوق الثانى ؟ » فأنكروا ذلك . فأردت أن أضربهم . فقالوا : « اعلم أيها الأمير أننا نمنا البارحة فلما انتبهنا وجدنا مشنوقا واحدا سرق هو والخشبة التى كان عليها . فخفنا منك ، وإذا برجل فلاح مسافر قد أقبل علينا ، ومعه حمار . فقبضنا عليه ، وقتلناه ، وشنقناه مكان الذى سرق على هذه الخشبة » .

فتعجبت من ذلك ، وقلت لهم : « وما كان مع الفلاح ؟ » فقالوا : « كان معه خرج على الحمار » . قلت لهم : « وما فيه ؟ » قالوا : « لاندرى ! » فقلت لهم : « على به ! » فأحضروه بين يدى . فأمرت بفتحه ، وإذا فيه رجل مقتول مقطع . فلما رأيته تعجبت من ذلك ، وقلت فى نفسى : « سبحان الله ! ما كان سبب شنق هذا الفلاح إلا ذنب هذا المقتول ، وما ربك بظلام للعبيد » .

١ ـ حمل هذا اللقب كثير من سلاطين مصر .
٢ ـ القاهرة ؛ يسميها أهلها الآن عادة « مَصْر » ، محرفة عن « مِصْر » . وبولاق الميناء الرئيسى للقاهرة . ومصر القديمة ، يسميها المصريون عادة الآن مصر العتيقة ، وهى بنفس المعنى ، ويجعلها الأوروبيون خطأ ، القاهرة القديمة .

حكايات طاه من القاهرة

فى ١٨٨٣ نشر المستشرق ولهلم سبتا بك Wilhelm Spitta مجموعة من الحكايات الشعبية المصرية بعنوان : قصص عربية حديثة Conts Arabes Modernes وقد روى الحكايات له ، باستثناء واحدة (ليست هنا) طاهيه حسن ، الذى يصفه فى هذه الكلمات : « إنه لا يستطيع القراءة ولا الكتابة ، ولكنه ذكى وذو ذاكرة رائعة . وبهذه الصفة ، احتفظ منذ طفولته بجميع القصص التى قصتها عليه أمه ، وخالاته ، والعجائز اللائى زرن بيت والديه » . وقيد سبتا القصص كما رويت له ، بلهجة مصر السفلى ، ونشرها بخط صوتى مع ترجمة فرنسية .

قصة دَلاَل

كان فيه واحد ملك مخلف بنت اسمها دلال . فقعدت يوم بتهرش فى راسها ، قامت التقت قمله صغيره . قعدت تتفرج عليها ؛ خدتها وراحت الكرار ، وحطتها جوه زلعة زيت ، وسدت عليها . فضلت القمله لما كبرت دلال ، بقى عمرها عشرين سنة . قامت القمله من كبرها كسرت الزلعه ، وطلعت منها بقى زى الجاموسه لها قرون . قام الكرارجى فات الكرار ، وجرى نده للخدامين . اتكاتروا على القمله ، مسكوها ، وودوها قدام الملك . قال لهم : « دى إيه دى ؟ » كانت دلال واقفه ، قالت له : « دى قملتى ، يا بويا ، وانا صغيرة بهرش فى راسى قمت لقيتها فى راسى ، رحت حطيتها فى زلعة الزيت ، ولما كبرت كسرت الزلعه » . قام الملك قال لها : « انتِ دِ الوقت عاوزه الجواز يابنتى ، اللى القمله كسرت الزلعه انت كان بكره تنطى من الحيط ، تروحى للرجال ، بقى جوازك دِ الوقت أحسن » .

قام الملك نده للوزير ، وقال له : « ادبح القمله ، وعلق جلدها على الباب ، وخد المشاعلى وياك ، والفق اللى يكتب الكتاب ؛ اللى يعرف جلد القمله تجوزه لدلال ، واللى ما يعرفش تقطع راسه وتعلقها على الباب . راح الوزير سلخ القمله ، وعلقها على الباب ،

وطلع منادى فى البلد ، وقال : « اللى يعرف الجلد اللى معلق على الباب يتجوز بنت الملك » . فأهل البلد راحت عند باب الملك . اللى بقى يقول : « دَه جلد جاموسة » . واللى بقى يقول : « دَه جلد تِيتَل » ، لغاية لما قَطَمْ رأس أربعين راجل إلا واحد .

وشويه فايت غول ، بصورة بنى آدم ، قال للناس : « الزحمه دى إيه ؟ » قالوا له : « اللى يعرف الجلد ده يتجوز بنت الملك » . فراح الغول عند الوزير قال لهم : « أنا أقول لكم على الجلد ! » قالوا له : « طيب قول ! » قال لهم : « ده جلد قمله متربيه جوه الزيت » . قالوا له : « صحيح يا شاطر ، خش اكتب الكتاب عند الملك » . فراح عند الملك ، كتبم الكتاب ، وعملوا له الأفراح لما دخل عليها .

قعد وياها أربعين يوم فى سراية الملك . بعد الأربعين يوم دخل عند الملك ، قال للملك : « أنا ابن ملك وسلطان ، بدى آخد مراتى واسافر ، أروح فى سراية أبويا ، أقعد فيها » . قال له الملك : « طيب يا ابنى ، بكره نطلع لك الهديات والجوار والأغوات » . قام الغول قال له : « احنا عندنا من دول كثير ، موش عاوز حاجة غير مراتى » . قال له الملك : « طيب ! خدها وسافر ، وخد أمها وياها ، على شان تعرف مطرحها » . قام الغول قال له : « على شان إيه نتعب أمها ؟ أنا كل شهر أجيبها تشوفها » .

خدها الغول وسافر ، وحطها فى البيت بتاعه . وفتها[١] ، وطلع فى الجبل ، وتنفض بقى بصورة غول . وجاب لها راس ، بتاع بنى آدم ، وقال لها : « خدى ، يا دلال ، فسخى الراس وكلى » . قالت له : « دى راس بنى آدم ، أنا ماكلش إلا لحمة خروف » . فراح الغول جاب لها خروف . طبخته وكلت منه .

بعد تمان أيام راح الغول صور نفسه زى أمها ، ولبس لبس الحريم ، وخبط . طلت دلال من الشباك ، قالت : « ده مين اللى بيخبط على الباب ؟ » رد عليها الغول وقال لها : « افتحى يا بنتى ، ده انا أمك » . فنزلت فتحت له فى الباب . أول ما شافها قال لها : « ازيك يا بنتى؟ أنا باسمع على جوزك إنه غول بيوكلك لحم بنى آدم ، أنا خايفه عليك ليا كلك ، تعالى اهربى وياى ! » قالت لها : « اسكتى يا امى ! ما تحكيش الكلام دى ، ده ابن ملك زى ما انا بنت ملك ، وخيره كتير زياده عن خير أبوى » . وفاتها الغول ونزل ، صدره مشروح منها ، على شان ما باعتش بسره . وراح جاب لها خروف وجى ، وقال لها : « خدى ادبحى يا دلال وكلى » . قالت له : « أمى جت هنا بتسلم عليك » . قال لها : « يا ريتنى قربت شويه على شان أشوفها » . قال لها : « بكره أبعت لك خالتك تشوفيها »[٢] .

تانى يوم ، لما طلع النهار ، نزل الغول قلب صورته زى صورة

---

(١) أى وفاتها .
(٢) فى الأصل : تشوفها .

خالتها ، والبس لبس الحريم ، وراح خبط على الباب . قالت له دلال : « ده مين ؟ » قال لها : « افتحى ده أنا خالتك ، بحتانى[1] أمك على شان أشوفك » . فنزلت فتحت لها الباب . وباسها الغول من خدها وعيط ، وقال لها : « يا بنتى ! أنا باسمع اللى اتجوزك غول ! » قالت له دلال : « اسكتى ! ما تحكيش الكلام دى ، ده ابن ملك وسلطان » . قالت لها : « تعالى شوفى الخير بتاعه فوق » . فطلعت وياها فوق ، وحطت لها السفرة ، وجابت لها الغدا . اتغدت وتنها نازله . نزل الغول فراح جاب لها خروف وجى . قالت له : « خالتى جت بسلم[2] عليك » . قال لها : « بقت أهلك بيجوا ولا أشوفهمش! كان يا دلال ابعت لك عمتك أخت أبوك تشوفك ، لإنى باسمع إنها حبيبه لك » .

وبعد مافاتت الجمعة تمان ـ ت ـ ايام ، نزل الغول ، قلب صورته زى صورة عمتها أخت أبوها . خبط على الباب ، وقالت : « ده مين ؟ » قال لها : « افتحى ده أنا عمتك ! » نزلت دلال فتحت له الباب . وباسها وقال لها : « يا بنتى ! أنا باسمع لإن اللى انت مجوزاه غول » . قامت دلال عيطت ، وقالت لها : « اسكتى يا عمتى ، بيجيب لى راس بنى آدم ، ويقول لى : « خدى فسخيها واطبخيها » . أنا خايفه أحسن ياكلنى » . قام الغول اتنتر بقى بصورة غول . فلما شافته اتوهرت . وقال لها : « كده ! تبيعى بسرى قوام ، يا دلال ؟ ! »

---

(١) أى بعتانى ، أوباعتانى = بعثتنى .
(٢) أى بتسلم .

قالت له : « فى عرضك ! ما عليش » . قال لها : « انت خليت لى عرض ؟ قولى لى : آكلك من أين بقت ؟ » قالت له دلال : « راح تاكلنى وأنا وسخه ؟ يبقى طعم لحمى فى حنكك وحش . خدنى ودينى الحمام ، لما استحمى ولما آجى من الحمام ، كلنى مطرح ما يعجبك » . قام الغول قال لها : « صحيح يا دلال ! » .

طلع لها طشت بتاع الحمام ، طلع لها الملبوس أعز ما عنده . وراح جاب غول ، قلبه بصورة حمار حصاوى ، وهو قلب صورته بصورة سايس . وطلع شال الطشت بتاع الحمام فوق راسه ، وركبها الحمار . وخدها وراح فى البلد اللى فيها الحمام . وخدها ودخل عند المره الحارسه ، وقال لها : « خدى ، آدى تلاته محبوب ، وحمى الست مرات الملك كويس ، زى ما سلمتها لك تسلميها لى » . وفاتها وطلع وقعد على باب الحمام .

طلعت دلال قعدت على المصطبه ، وكل الصبايا تخش تستحمى وتطلع فرحانه وتلعب وى بعض ، إلا هى دلال قاعده تعيط على المصطبه . يقول لها الصبايا « مالك يا أختى بتعيطى ؟ ما تقومى تقلعى هدومك وتستحمى ويانا » . قالت لهم : « أهو الوقت بدرى على الحموم » .

شويه دخلت مره عجوزه ، بتاحة[1] ترمس ، شايله القصعه بتاع الترمس فوق راسها . ندهت لها دلال وقالت لها : « تعالى ! ادينى

(١) أى بتاعة — ح .

بعشرين ترمس » . وراحت لها بتاحة الترمس ، وقعدت جنبها . قالت لها : « يا خالتى ! » . قالت لها : « نعم يابنتى ! » قالت لها : « تدنيش قصعة الترمس دى ، والهدوم اللى عليك المقطعة ، وتأخدى طشت الحمام الدهب دى ، والسيره اللى على والهدوم ، وتلبسيهم وأنا ألبس هدومك ؟ » قالت لها العجوزه : « على شان ما أنت سعيده تتمسخرى على على شان أنا فقيره ؟ » قالت لها : « أنا كلامى صحيح وياك ، يا أم العجوزه » . وقلعت الهدوم العجوزه واديتهم لها ، والعجوزه خدت هدومها . قامت فرحانه ، وطلعت من الباب التانى بتاع المستوقد . ودلال شالت القصعه بتاعة الترمس فوق رأسها ، ودخلت عاصت وشها وايديها من الوسخ بتاع البلاط بتاع الحمام . وطلعت من الباب اللى عليه الغول ، خايفه خوف شديد . وبقت تنادى : « ياللى يسلى ، ياترمس ! » .

لما شافها الغول شم ريحتها عرفها ، وقام قال : « ياترى ! هى دى والا لا ؟ » دخل يجرى عند المره الحارسه ، قال لها : « فين الست مرات الملك اللى سلمتها لك ؟ » قالت له : « أهى جوه وى الصبايا تستحمى . » قال لها : « أمال غابت ليه ؟ » قالت له : « هم يطلعوا دى الوقت ، ما يطلعوش إلا بعد العصر ! » اطمن الغول وقعد على الباب لما طلعم الصبايا كلهم من الحمام . وطلعت الحارسه فى جملتهم وسكت باب الحمام . قال لها : « فين أمال الست مرات الملك اللى سلمتها لك ؟ » قالت له « ماطلعت عليك » . قال :

« ما طلعنش ، أنا لازمها منك ، لازم تسلميها لى زى ما سلمتها لك . » قالت له الحارسه : « روح شوفها فى البيت إذا كان راح منها سيره وإلا حاجه أنا ملزومه بها ، أنا حارسه هدوم مش حارسة نسوان . قام الغول فاتها ومشى ، وانغاظ غيظه شديده ، وقال : « والله ، ولو تكون فى سابع أرض لتنى وراها ، لما أجيبها وأكلها » .

مشيت دلال بعد ماطلعت من الحمام ، راحه[1] على بلادها ، تاهت من السكه . قامت التقت نهرة مويه ، غسلت وشها ورجليها . ومشيت التقت سرايه بتاعة واحد ملك ، قعدت جنب الحيطة بتاعتها . نازله الجاريه بتنفض المفرش ، قامت شافتها . طلعت قالت لستها : « لوما الخوف والفظاعة منك ، لا قول : « واحده تحت ياستى أحسن منك » قالت لها : « طيب روحى اندهى لها » . نزلت الجاريه قالت لها : « تعالى كلمى ستى ! » قامت دلال قالت لها : « هو أنا أمى جاريه وإلا أبوى عبد لما أطلع وى الجوار ؟ » قامت طلعت الجاريه ، قالت لستها زى ما قالت لها دلال . قامت بعتت لها جاريه بيضه قالت لها : « روحى اندهى لها انت » . نزلت لها الجاريه البيضه ، وقالت لها : « تعالى يا ست كلمى فوق ستى » . قامت دلال قالت لها : « أنا موش جاريه بيضه لما أطلع وى الجوار البيض ! » قامت الجاريه البيضه طلعت قالت لستها زى ما قالت لها

---

(١) أى رايحة — ح .

دلال . قامت الست ندهت لابنها : ابن الملك ، وقالت له : « انزل هات الست اللى تحت » . فنزل لها ، وقال لها : « اتفضلى فوق عند الحريم! » قالت له : « دى الوقت أطلع وياك ، لإنك انت ابن ملك ، وأنا بنت ملك » ، وطلعت وياه السلالم .

أول ما شافها ابن الملك طالعه وياه السلالم حبها نزل فى قلبه . أول ما شافتها الست مرات الملك قالت لنفسها : « صحيح كلام الجاريه لإنها أحسن منى » . قام ابن الملك قال لأمه : « أنا بدى أتجوزها لإنها باينه بنت ملك » . قامت أمه قالت له : « يا ابنى ، أنا خايفه تكون غوله ، وقالبه صورتها زى بنى آدم ، أحسن تنام وياها فى الفراش تقوم فى الليل تاكلك ، وتنزل علينا احنا كمان تاكلنا » . قال لها : « ما تحكيش الكلام دى يا أمى ، أنا عارفها لإنها بنت ملك زى ما أنا ابن ملك » . قالت له : « تعرف شغلك يا ابنى » . راح نده للقاضى كتب له الكتاب ، ودور الفرح .

أتابى الغول داير بيسأل عليها ، ويقعد فى كل بلد يوم أو جمعه ، لما دار وصل لحد السرايه بتاع ابن الملك اللى دلال قاعده فيها ، والتقى الفرح داير . قام سأل واحد من الخدامين قال له : « الفرح ده بتاع مين ؟ » قال له الخدام : « ده بتاع ابن الملك بيتجوز واحده بنت واحد ملك ، لقاها تايهه فى السكه . قام الغول فاته ، ومشى راح نده لواحد غول ، وقال له : « اقلب صورتك بنى آدم ، وأنا أقلب صورتى بخروف أبيض كبير ، تروح للملك تقول له :

« يا ملك ! دى هديه من عندى ، لكن ما تخليها تحت ، خليها فوق عند الحريم ، أحسن أنا مربيه وى الحريم ، أحسن إن ربطه تحت طول الليل يزعق ما يخليش حد ينام » .

قام الغول خده ، وراح التقى الملك واقف . أول الملك ما شاف الخروف عجبه ، قال له : « تبيع الخروف يا شيخ ؟ » قال له : « أنا جايبولك هديه من غير فلوس » . وحكى له زى ما قال له الغول . قام الملك قال له : « طيب ! » وأعطاه لواحد أغا : « وديه فوق عند العروسه على شان تبقى تتفرج عليه » . خده الأغا وطلع فوق ، ربطه على باب العروسه .

كانت ليلة الدخله . دخل عليها ابن الملك ونام وياها فى السرير . بعدما نام قطع الحبل الغول ، وراح شالها من جنبه ، وخدها وطلع بره فى الفسحه . وقال لها : « قولى لى بقت يا دلال : آكلك من أين ؟ » قالت له دلال : « فى عرضك ! » قال لها الغول : « انت خليت لى عرض ؟ يكفى التعب اللى تعبته على شانك » . قالت له : « اصبر على لما أخش أتفك فى بيت الراحه » . دخلت دلال جوه بيت الراحه ، والغول مسك الباب ووقف عليه . قامت دلال قالت : « يا سيده زينب ! يا منجيه الشباب من العذاب ! » قامت السيده شخصت لها واحده من إخوانها الجان ، شقت الحيطه ، طلعت لها ، قالت لها : « انت بتندهينى ليه يا بنت ؟ » قالت لها : « فيه غول بره يا ستى راح ياكلنى ! » قالت لها : « طيب ! إن

موتو لك أول ولد ما تولديه تدهينى ؟ » قالت لها : « طيب ، يا ستى ! » قامت عطت لها خشبه ، وقالت لها : « انت أما تطلعى الغول دغرى راح يفتح حنكه على شان ياكلك . لما يفتح حنكه عليك ارمى له دغرى الخشبه دى فى حنكه ، يقوم يقع يدوخ ، تروحى دغرى تندهى للخدامين يموتوه . سمعت كلامها دلال وطلعت . فتح حنكه الغول وجى ياكلها . قامت رمته بالخشبه فى حنكه . وقع فى الأرض داخ . دخلت تجرى جوه عند ابن الملك ، صحته ، قالت له : « قوم موت الغول أحسن جاى ياكلنى » . قام ابن الملك سحب سيفه ، وجرى بره فى الفسحه قطعه حتت بالسيف ، ودخل نام هو ودلال فى الفرش .

قعدت دلال مبسوطه فى السرايه لما دارت وحبلت وولدت . قامت شقت الحيطه الجنيه ، وجت لها قالت لها . « هاتى البنت بقت اللى ولدتيها » . قالت لها : « خدى آهى » . خدتها وراحت . جت الصبح أم الملك هى والحريم على شان يباركوا لها على شان ما ولدت . أم الملك قالت لها : « اورينى ابنك ! » قالت لها : « أنا ما ليش ولاد » ، وعيطت . قامت أم ابن السلطان قالت : « أنا ما قلت دى غوله ، آهى ولدت وكلته غير شى هى خايفه مننا ، مش راضيه تاكل حد منا » . راحم قالم لابن الملك : « مراتك غوله كلت ابنها ! » قال لهم : « روحم ودوها المطبخ ، تقشر بصل وى الجوار » .

خدوها الخدامين ودوها المطبخ . قاعده عشر سنين وهى تقشر بصل . قامت الجنيه شقت الحيطه ، وجتلها : « خدى أدى بنتك ، أهى بقت كبيره وعروسه ، أنا لقيتك فى العذاب قمت صعبت على ، لكن لما يركب الملك فى العربيه نزلى البنت ، خليها تقف تحت رجلين الخيل . يقوم الملك يشوفها ، ويقول لها : « انت بنت مين يا بنت ؟ » تقوم تقول له : « أنا بنتك ! » يقول لها : « تعالى ورينى أمك فين ؟ » يقوم يلتقيك انت ، يقوم ياخدك ترجعى أحسن ما كنت » . فاتتها وراحت . لما طلع النهار ، بعتت البنت تحت عند الباب . لما جى ركب الملك ، البنت طلعت تجرى تحت رجلين الخيل ، معريه راسها . قام الملك ، لما شافها ، قال له : « استنى يا عربجى ! » قال لها : « انت بنت مين ؟ » قالت له : « تعالى أما أوريلك أمى » هى مشيت قدامه ، وهو مشى وراها . تنها رايحه على المطبخ . قالت له : « أهى دى أمى ، اللى قاعده بتقشر فى البصل » . قام مسك البنت باسها من خدودها ، وشالها على كتفه . وأمر الخدامين خلم يسخن الحمام ، ودم دلال فيه ، استحمت . ولبسها بدل ملوكى ، وقعدت فى السرايه أحسن ما كانت .

لما راحت الجنيه ، بعت لها سلطان الجان . راحت له ، قال لها : « البنت فين اللى انت مربياها ؟ » قالت له : « وديتها لأمها » . قال لها : « ما تعرفيش تجيبيها ؟ » قالت له : « عاوزها على شان أيه ؟ »

قال لها : « على شان ابنى عيان ، الحكيم قال : ما يخفش إلا على طاسة مويه من بحر الزمرد ، ولا يجيبهاش إلا بنت من الإنس ، اعملى معروف : روحى هاتيها مقدار ساعه ورجعيها تانى ! » راحت الجنيه شقت الحيط ، وقالت لها : « يا دلال ! ادينى البنت مقدار ساعه وأجيبها لك تانى » . قالت لها : « طيب يا ستى ، خدى أهى ! » وخدتها وراحت ، وودتها عند الملك بتاع الجان . أول ما شافها سلطان الجان عطاها طاسه ، وقال لها : « خدى دى ، واركبى الجان دى ، راح يوديك عند بحر الزمرد ، امليها منه » . قالت له « طيب ! » ركبت البنت الجان ، ووداها حد بحر الزمرد . نزلت بتملا الطاسه . جت موجة طاستها فى ايدها بقت راحه أخضر زى البرسيم . ركبت الجان ووداها لحد هناك . عطت الطاسه لسلطان الجان . كانت قاعده الجنيه ، خدتها وودتها لأمها تانى .

أتاريى بحر الزمرد ليه واحد وزان ، كل يوم الصبح يوزنه ، يشوف حد سرق منه والا لا . صبح الصبح وزنه ، التقاه ناقص رطل . قال : « يا ترى مين اللى خده ؟ لأدور سواح عليه لما أجيبه إذا كان فى ايده اشارة من بحر الزمرد ، أجيبو له ويعرف شغله فيه » . قام راح خد غوايش وخواتم ، وحطهم فى طبق وشالهم فوق رأسه . بقى يجى تحت السرايه وينادى : « ويانا الغوايش والخواتيم ، يا بنات ! »

تنه داير فى البلاد لما وصل البلد اللى فيها دلال ، وبينادى فيها .

كانت بنت الملك طاله من الشباك ، راحت لأمها : « أنا عاوزه خواتم وغوايش ، راجل أهو واقف تحت الباب » . قالت لها : « طيب ، يا بنتى ! أبعت الخدام يجيب لك » . قالت لها : « لا ، أنا أنزل أقيسهم على ايدى » . قالت لها : « طيب روحى ! »

مدت يدها الشمال للراجل من جنب الباب . قام الراجل قال لها : « مش عيب تدينى يدك الشمال ؟ ! » كانت البنت مختشيه تورى له يدها اليمين ، علشان خضره ، قالت له : « يدى اليمين بتوجعنى » . قال لها : « بس أشوفها بعينى ، وأعرف قياسها » . أول ما شافها القبان بتاع بحر الزمرد مسكها من يدها ، غطس بيها تحت الأرض ، خدها وراح عند الخدامين بتاع بحر الزمرد . قال لهم : « خدم أهى اللى سرقت الرطل » . مسكوها بقوا يضربوا فيها بالطاسات . أتابى الجان اتحوطم البنت ، بقى يستلقوا الضرب على يدهم ، وهى مش نازل عليها ضرب . أمر السلطان بتاع بحر الزمرد : « ودوها جوه الحمام وكتفوها ، وأنا أعمل بصورة تعبان ، وأخش آكلها » . دخلم كتفم البنت . دخل الملك بتاع بحر الزمرد بصورة تعبان . أول ما شافته البنت قالت : « بسم الله ، ما شاء الله ، لوما الخوف والفظاعة منك لأقول عنيك زى بحر الزمرد » . رد عليها التعبان وقال لها : « أنت عرفتينى ، أنت بقيت من نساى ، وأنا بقيت من رجالك » . واتنفض قدامها بقى بنى آدم ، وقال لها : « أنا حارجعك الليلة دى عند أبوك تانى . واروح أكتب الكتاب عليك . واعمل لك

الافراح . ولمـا أجى لك فى الليل أجى لك بصورة تعبان طائر . وأخش من الشباك ، وابق اطلع من الشباك » . نده للوزان بتاع بحر الزمرد ، قاله : « رجع البنت مطرح ماجبتها » . نخدها وداها مطرحها . وراح وراها دخل عند أبوها . قال له : « أنا طالب القرب منك فى بنتك » . قال له : « طيب ، اعمل المهر » . قال له : « المهر أربعين جمل من زمرد ومن ياقوت » .

كتبم الكتاب عليها وعليه ، وعملم الافراح أربعين يوم تمـام . ودخل عليها وقعدم وىّ بعض فى الـكمال .

* * *

(١) محبوب : الاسم المصرى المعتاد لعملة تركية .

قصة عرب زنديق

كان فيه واحد ملك ، قال للوزير بتاعه : « يلا نتفسح فى الليل فى البلد » . قام مشيم التقوا بيت فيه كلام فى الليل . وقفوا تحت منه ، سمعوا واحده بتقول : « إن اتجوزنى الملك أعمل له فطيره تكفيه وتكفى جيشه » . والثانيه قالت : « إن اتجوزنى الملك أعمل له صوان يكفيه ويكفى جيشه » . والتاليه قالت : « إذا كان يجوزنى الملك أولد له بنت وولد ، شعره من دهب وشعره من ياقوت ، إذا كانوا يعيطم الدنيا ترعد والمطر ينزل ، وإذا كانم يضحكم الشمس والقمر يطلع » . سمع الكلام بتاحهم الملك وتنه ماشى . لما طلع النهار بعت جابهم التلاته ، وكتب عليهم الكتاب .

وبيت وى واحده أول ليله . قال لها : « فين الفطيره اللى تكفينى وتكفى جيشى ؟ » قالت له : « كلام الليل مدهون بالزبده ؛ يطلع عليه النهار يسيح » . والتانيه بيت وياها تانى ليله . قال لها : « فين الصوان اللى يكفينى ويكفى جيشى ؟ » قالت له : « كانت كلمه وهفت على بالى » . أمر لهم الاتنين ينزلم فى المطبخ وى الجوار . وتالت ليله بيت وى الصغيره ، قال لها : « فين الولد والبنت ، اللى شعره من دهب وشعره من ياقوت ؟ » قالت له : « اصبر على تسعة أشهر وتسع دقايق » .

وحبلت ووفت التسعة شهر والتسع دقايق . وليلة ما جت

تولد بعتم جابم الدايه . راحت قابلتها فى السكه مراته التانيه ، قالت لها : « لما تولديها راح يدى لك كام الملك ؟ » قالت لها : « بيؤمر لى بخمستاشر محبوب » . قالت لها : « خدى أدى أربعين محبوب من عندى ، وخدى الكلبين دول العمى ، ولما تولد الولد والبنت شيليهم حطيهم فى الصندوق ، وحطى الكلبين دول مطرحهم ، وخدى الاولاد موتيهم » . نخدتهم الدايه وراحت . فلما ولدت شالتهم حطتهم فى صندوق ، وحطت الكلبين مطرحهم . وراحت للملك قالت له : « أنا خايفه أقول لك » . قال لها : « قولى ؛ عليك الأمان » . قالت له : « دى ولدت كلبين » . قام الملك أمر لها ، قال : « خدوها عصوها قطران ، واربطوها ع السلالم ، واللى طالع واللى نازل يتف عليها » . خدوها وربطوها ع السلالم ، والدايه العجوزه شالت الاولاد بصندوق ، وراحت رمته فى البحر .

فيه واحد صياد قاعد فى جزيره هو ومراته ما بتخلفش ذريه . قام الصياد نازل فى الصبح يصطاد ، التقى صندوق مركون جنب البحر . شاله وراح عند مراته ، وحطه بينها وبينه ، وقال لها : « شوفى يا مرأه لما أشرط عليك : إذا كان دا مال من قسمتى ، وإذا كانوا ذرية من قسمتك » . قالت له : « طيب أنا رضيت بكده » . فتحوا الصندوق التقوهم ولد وبنت ، الولد حاطط صباعه فى حنك البنت ، والبنت حاطه صباحها[1] فى حنك الولد ، وبيرضعوا

---

(١) أى صباعها .



فى اصبعة بعض . قامت المرأه شالتهم وطلعتهم من الصندوق ، وطلبت من عند ربها : « تنزل لى لبن فى بزازى على شان العيال دول » . بقدرة قادر نزل اللبن فى بزها .

فضلت تربيهم لما كبرم بقى عمرهم اتناشر سنه . نزل الصياد يصطاد ، اصطاد بياضتين كبار . قام الولد قال له : « البياضتين دول كويسين يابا ، أنا آخدهم أبعهم[1] والا أوديهم هديه للملك » . خدهم الولد ومشى ، قعد بيهم فى سوق السمك . الناس اتلمت عليه ، اللى ما بقاش يتفرج ع السمك يتفرج على الولد . قام الملك فايت من هناك شاف البياضتين وشاف الولد ، نده له قال له : « بكام دول ياولد ؟ » قال له : « لك من غير فلوس » . قام الملك خده وراح عند السرايه ، قال له : « انت اسمك ايه ؟ » قال له : « اسمى محمد ، وابوى الصياد اللى قاعد فى وسط الجزيره » . قام الملك أدى تلاتين محبوب للولد ، وقال له : « روح يا شاطر ، كل يوم تعالى لى هنا » . راح الولد أدى لأبوه التلاتين محبوب .

فى تانى يوم ، خد السمك وراح له ، ادى السمك للملك . خده الملك ودخل وياه جوه الجنينه ، وقعده قصاده ، والملك قاعد يشرب فى الخمر ، ويشاهد فى جمال الولد . وحب الولد نزل فى قلب الملك ، قعد وياه ساعتين . أمر له بحصان ركوبه على شان يركبه ، يبقى يروح ويجى بيه للملك . فركب الحصان وراح .

---

(١) أى أبعهم .

وتانى يوم جى عند الملك ، وقعد وياه فى الجنينه . قامت مرات الملك طلت من الشباك ، شافت الولد ، عرفته . قامت بعتت للمرأه العجوزه ، ندهت لها ، قالت لها : « أنا قلت لك : موتى العيال ، أهم موجودين فوق وش الدنيا » . قالت لها : « اصبرى على يا ملكه تلات ايام وأنا أموته » .

راحت العجوزه جابت زير ، وحبكته بزنار . وسحرته ، وركبت فوقه ، وضربته بكرباج ، طار بيها . نزل فى الجزيره عند عشة الصياد . التقت البنت قاعده أخت الشاطر محمد قاعده لوحدها . قالت لها : « يا بنتى انت قاعده لوحدك زعلانه كده ليه ؟ قولى لاخوك يجيب لك وردة عرب زنديق ، تقعد عندك تغنى لك ، تسليك بدال ما انت قاعده كده لوحدك زعلانه » . قالت لها العجوزه الكلام ده وفاتتها وراحت . لما جى أخوها عندها التقاها قاعده زعلانه . قال لها : « انت زعلانه ليه يا أختى ؟ » قالت له : « أنا عاوزه وردة عرب زنديق على شان تغنى لى وتسلينى » . قال لها : « حاضر أنا أجيبها لك » .

ركب الحصان بتاعه ، وسافر فى وسط الجبل . التقى غوله قاعده تدش القمحه على رحايه ، نزل من على الحصان التقاها بزازها مرميين على اكتافها من وراها . شرب من بزها اليمين ومن بزها الشمال . وجى قدامها وقال لها : « السلام عليكم ، يا أمنا الغوله » . قامت قالت له : « لوما سلامك غلب كلامك كلت لحمك قبل

عظامك » . قالت له : « انت رايح فين يا شاطر محمد ؟ » قال لها : « أنا رايح أجيب الورده بتاع عرب زنديق اللى بتغنى » . دلته على السكه ، وقالت له : « تلتقى السرايه مربوط قدامها جدى وكلب ، وقدام الجدى لحمه ، وقدام الكلب برسيم . تشيل اللحمه من قدام الجدى ترميها قدام الكلب ، وتشيل البرسيم ترميه قدام الجدى . يتفتح لك الباب ، تخش تقطع الورده . تقطعها وتنك طالع ، ما تتلفتش وراك ؛ أحسن إن اتلفت تسخط تبقى حجر زى المسخوطين هناك » . راح الشاطر محمد . زى ما قالت له الغوله عمل : دخل قطع الورده ، وطلع بره الباب ، رجع اللحمه قدام الجدى بالتانى ، ورجع البرسيم قدام الكلب ، وخد الورده راح وداها لاخته .

وراح عند الملك تانى . سلم عليه الملك وقال له : « انت كنت فين يا شاطر ؟ غبت عنى قد كده ليه ؟ » قال له : « أنا كنت عيان يا ملك » . خده ودخل وياه جوه الجنينه . قعدوا الاتنين . طلت مرات الملك شافته قاعد وياه من الشباك . بعتت للعجوزه ندهت لها ، وضربتها ضرب شديد ، وقالت لها : « انت بتضحكى على انت يا عجوزه ؟ ! » قالت لها : « اصبرى على كمان تلات ايام يا ملكه » . ركبت الزير بتاحها وراحت للبنت ، قالت لها : « أخوك جاب لك الورده ؟ » قالت لها : « أيوه ، لكن ما بتغنيش » . قالت لها العجوزه : هى ما بتغنى إلا بالمرايه بتاعتها » . وفاتتها ومشيت . لما جى أخوها

التقاها قاعده زعلانه ، قال لها : « انت زعلانه ليه يا أختى ؟ » قالت له : « أنا عاوزه المرايه بتاحة الورده ، اللى تغنى عليها » . قال لها : « طيب ! حاضر ! أنا أجيبها لك » .

وركب الحصان بتاعه ، وسافر راح عند الغوله . قالت له : « عاوز إيه يا شاطر محمد؟» قال لها : « أنا عاوز المرايه بتاحة الورده » . قالت له : « طيب ! روح اعمل زى ما عملت النوبه دكها فى الكلب والجدى ، لما تخش جوه الجنينه تلتقى سلالم تطلع فوقهم ، أول أوضه ما تقابلك تلتقى المرايه جواها معلقه ، تشيلها وتنك طالع ، ما تلتفتش وراك ، إذا كانت الأرض تترج بيك خلى قلبك جامد ، أحسن تروح بلاش » . راح الشاطر محمد زى ما قالت له الغوله . شال المرايه اترجت بيه الأرض ، خلى قلبه جامد زى السندال ولا على باله مرجها . خد المرايه واداها لاخته . حطتها قصاد الورده ما غنتش الورده .

وراح للملك . قال له : « انت كنت فين يا شاطر ؟ » قال له : « أنا كنت مسافر وى أبوى فى جهه وادينى جيت » . خده الملك ودخل جوه الجنينه . شافته مرات الملك ، بعتت للعجوزه ندهت لها ، قالت لها : « انت بتضحكى على يا عجوزه ؟ » قالت لها : « اصبرى على كمان تلات أيام يا ملكه ، النوبه دى الأول والآخر » . وركبت الزير بتاحها ، وراحت عند البنت ، قالت لها : « أخوك جاب لك المرايه ؟ » . قالت لها : « أيوه ! لكن الورده مابتغنيش » . قالت لها : « هى ما بتغنى إلا بصاحبتها اسمها عرب

زنديق » . وفاتها وتنها ماشيه . راح الولد التقى أخته زعلانه ، قال لها : « انت زعلانه ليه يا أختى ؟ » . قالت له : « أنا عاوزه عرب زنديق صاحبة الورده والمرايه ، على شان يغنوا لى ، أسلى عليهم وأنا قاعده لوحدى » .

ركب الحصان بتاعه ، وراح عند الغوله قال لها : « ازيك يا أم الغوله ؟ » قالت له : « انت عاوز ايه كمان يا شاطر محمد ؟ » قال لها : « أنا عاوز عرب زنديق صاحبة الورده والمرايه » . قالت له : « يا شاطر محمد ، ما هى ملوك وباشوات ماعرفوش يجيبوها ، وأهم ساخطاهم حجر كلهم ، وانت لسه صغير مسكين تروح فين ؟ » قال لها : « بس دلينى ياأمنا الغوله على سكتها ، وأنا أجيبها بإذن الله » . قالت له : « تمشى لغرب السرايه ، تلتقى شباك مفتوح ، تجيب راس الحصان بتاعك وتحطها تحتها فى الحيطه ، وتزعق بقلبك القوى وتقول لها : انزلى يا عرب زنديق ! » فراح الشاطر محمد وقف تحت الشباك ، وحط راس الحصان قصاد الشباك ، وزعق وقال : « انزلى يا عرب زنديق ! » طلت وشخطت فيه ، وقالت : « امش يا ولد ! » طل التقى الشاطر محمد نص الحصان بقى حجر . زعق تانى بقلبه القوى ، وقال لها : « انزلى يا عرب زنديق ! » شخطت فيه وقالت له : « أنا باقول لك : امش يا ولد ! » طل التقى الحصان اسخط وهو نصه وياه . زعق تانى بقلبه القوى وقل لها : « أنا بأقول لك : انزلى يا عرب زنديق ! » طلت بنصها من الشباك ، وشعرها نزل للأرض . مسك شعرها الشاطر محمد ، ولفه على يده ،

وتتشها رماها الأرض. قالت له : « انت موعود بى ياشاطر محمد ، سيبنى من شعرى بقت ، وحياة راس أبوك الملك » . قال لها : « أنا أبوى مش الملك ، أنا أبوى راجل صياد » . قالت له : « لا ، انت أبوك الملك ، وأنا بعدين أحكى لك على حكايته » . قال لها : « أنا ماسيبكيش من شعرك إلا أما تسيبى الناس المسخوطين كلهم » . شاورت بدراحها[1] اليمين اسيبم . جم هاجمين على الشاطر محمد ، عاوزين ياخدوها منه . فيهم ناس قالم : « كتر خير اللى سيبنا ، انتوا عاوزين تاخدوها منه كمان ؟ » ففاتوها ومشيم .

وخدته وطلعت القصر بتاحها[2]. وأمرت الخدامين بتوحها[3]: يروحوا يبنوا سرايه فى وسط الجزيره بتاحة[4] الصياد . راحوا الخدامين بنوا السرايه . وخدت الشاطر محمد ، هى وعسكرها ؛ وراحت . وقالت له : « روح للملك ، لما يسألك يقول لك : انت كنت فين ؟ قول له : أنا بحضر الفرح بتاعى ، وانت معزوم عندى ، انت وجيشك » .

فراح الشاطر محمد للملك قال له : « انت كنت فين يا شاطر؟ » قال له : « أنا كنت باقضى حاجات الفرح بتاعى ، وأنا جاى أعزمك انت وجيشك كله » . قام الملك ضحك وقال للوزير : « الولد ده ابن واحد صياد ، وجاى عزمنى أنا وجيشى » . قام الوزير قال له : « على شان حبك فيه ، نؤمر العسكر ياخدوا أكل تمان—ت—ايام وياهم ، واحنا كمان ناخد أكلنا » . أمر الملك بتحضير العسكر وأكله

(١) أى بدراعها . (٢) أى بتاعها . (٣) أى بتوعها . (٤) أى بتاعة .

تمان ـــتـــ ايام ، وسافرم وراحم عند ابن الصياد . التقم العسكر خيام منصوبه كويسه . استعجب الملك . ونزل لهم الأكل : فطورات ، ولحم ،كلما يفرغ الأكل من قدامهم ينزل جنس تانى . فالعسكر قالت لبعضها : « يا ريتنا نقعد قد سنتين ، على شان ناكل اللحم ، ونبعد عن أكل الفول والعدس ! » قعدم أربعين يوم تمام ، لما فرغ الفرح ، وهم مبسوطين من الأكل .

سافر الملك هو وجيشه ، وقال للوزير : « احنا عاوزين نعزمهم زى ما عزمونا » . بعتوا عزموهم . أمرت عرب زنديق بتسفير العسكر ملم البلد ، ما بقوش لاقيين مطارح لهم ، بقم يفرقوهم على الفلاحين ، على شان يوكلوهم . سافرت عرب زنديق هى والبنت والشاطر محمد ، ودخلم جوه السرايه . وهم طالعين السلالم ، قامت عرب زنديق شافت أم الشاطر محمد ، متعاصه بالقطران ومكتفينها . قامت رمت عليها شال كشميرى غطاها . قاموا الخدامين اللى واقفين قالوا لها : « بتغطيها ليه بالشال ؟ تبى عليها وانت طالعه ، وانت كان نازله » . قالت لهم : « ليه ؟ » قالوا لها : « على شان ولدت كلبين للملك » .

قاموا الخدامين راحم ادوا خبر للملك ، قالوا له : « واحده من المسافرين رمت ع اللى واقفه ع السلالم شال كشميرى غطاها ، ولا تفتش عليها » . قام قابلها الملك ، قال لها : « ليه غطيتيها ؟ » قامت قالت له : « اؤمر يودوها الحمام ، ينضفوها ويلبسوها بدل ملوكى ،

وأنا بعدين أحكى لك بحكايتها » . أمر الملك ودوها فى الحمام نضفوها ، ولبسوها بدل ملوكى ، وخدوها ودوها قدامهم فى الديوان . قام الملك قال لعرب زنديق : « احكى لى بقى بالحكايه ! » قالت : « استمع يا ملك لما يكلم الصياد » . قامت عرب زنديق كلمت الصياد ، قالت له : « انت مراتك ولدت الشاطر محمد واخته فى بطن واحد والاكل واحد فى بطن ؟ » قام رد عليها الصياد ، وقال لها : « أنا مراتى ما تخلفش ذريه » . قالت له : « أمال جبتهم من اين ؟ » قال لها : « أنا نازل ساعة الصبح باصطاد ، قمت لقيتهم جوه صندوق فى البحر ، خدتهم ربتهم مراتى » . قامت عرب زنديق قالت له : « سمعت يا ملك ؟ » قال لها : « دول ولادك يا امرأه ؟ » قالت له : « خليهم يعرم روسهم لما أشوفهم » قامم عرم روسهم الأولاد ، لقوها شعره من دهب وشعره من ياقوت . قام الملك قال لها : « دول ولادك ؟ » قالت له : « خليهم يعيطم ، إن رعدت الدنيا ونطرت يبقوا أولادى ، وإن مارعدتش ولا نطرت ما يبقوش أولادى » . قاموا اعيطوا الأولاد ، قامت الدنيا رعدت ونطرت . قالوا لها : « دول ولادك ؟ » قالت : « خليهم يضحكم ، إن طلع القمر وى الشمس يبقم أولادى » . قامم خلوا الأولاد ضحكم ، طلع القمر وى الشمس . قاموا قالوا لها : « دول ولادك ؟ » قالت لهم : « ولادى ، ومنزلاهم من بطنى » . قام الملك أمر للصياد عمله وزير الميمنه ، وأمر للبلد تزين أربعين يوم تمام . فى آخر يوم جاب مراته والعجوزه الدايه حرقوهم فى النار ، وطيروهم فى الهوا .

مصر الحديثة

عم متولى

ولد محمود تيمور فى ١٨٩٤ ، فى درب سعادة ، من مصر الشعبية ، وهو من أسرة كبيرة من أصل تركي ، كان من أفرادها عدد من مشهورى العلماء والكتاب . وقد تأثر فى شبابه تأثرا كبيرا بأبيه ، أحمد تيمور باشا ، وهو عالم وأديب مشهور ، وبأخيه محمد ، الذى كان قاصا مبرزا أيضا . ثم درس الأدب الأوربى وخاصة الفرنسى ، ويذكر هو نفسه أن موبسان هو الذى أثر فى تطوره الأدبى تأثيرا حاسما . وقد نشر عدة مجلدات من القصص القصيرة ، ويعرف عامة بأنه رائد كتاب القصة القصيرة من العرب اليوم . ونشرت « عم متولى » ، وهى من قصصه الأولى ، أولا فى ١٩٢٥ ثم أعيد طبعها فى نسخة منقحة كل التنقيح فى ١٩٤٢ . وهى تعالج الإيمان القديم « بالمهدى » ، وهو شخص تذهب المأثورات الإسلامية إلى أن الله سيبعثه فى الوقت المناسب « ليطهر العالم من الفساد » وليبدأ حقبة من العدل والإسلام المطهر . وقد قام كثيرون فى التاريخ الإسلامى ادعوا أنهم المهدى ، ولنشاطهم آثار أخلاقية ومادية بعيدة المدى . ومنهم محمد أحمد ، مهدى السودان ، الذى توجت حياته العلمية ، التى بدأت فى ١٨٨١ ، بخلق دولة إسلامية مستقلة فى السودان ، مستقلة عن الإشراف المصرى أو الإنجليزى . وحطمت الدولة فى ١٨٩٨ ، حين هزمت القوات المصرية الإنجليزية ، برياسة اللورد كتشنر ، قوات وريث المهدى وخليفته واستولت على عاصمته الخرطوم .

وما يلى عن نسخة ١٩٤٢ .

* * *

« عم متولى » ، بائع اللب والفول السودانى والحلوى ، بائع متنقل يعرفه سكان « الحلمية » وما يجاورها من الجهات ، يسير

بعمامته البيضاء الطويلة ، وجلبابه الواسع الأكمام ، تعلوه الهيبة ، وقد حمل على ظهره قفته العتيقة ، وهو ينادى معددا للأطفال أصناف بضاعته بلهجة السودانيين ، بصوت وإن أضعفه الفقر والهرم ، إلا أنه لما يزل محتفظاً بنبرة الآمر : فقد نشأ الرجل فى السودان ، وحارب فى صفوف المهديين برتبة قائد فرقة . وقد عاش طول عمره وحيداً ، ليس له زوجة ولا بنون .

وهو يسكن حجرة صغيرة مظلمة فى عطفة « عبد الله بك » ، لا تحوى من الأثاث غير صندوق عتيق ، وحصير عليه لحاف ووسادة باليان . وعلى الرغم من مظاهر فقره المدقع فإن النظافة تحوطه وتحوط كل ما يملكه .

يئوب الرجل إلى بيته مضنى من شدة التعب ، وبعد أن يؤدى فريضة العشاء يشعل مصباحه الزيتى الضعيف النور ، ويجلس قبالة صندوقه ، ويخرج منه سيفاً قديما ، فيضعه على ركبتيه ، ويسبح فى تأملاته الطويلة ، مستعيدا ذكريات حياته الماضية ، فإذا مرت على خاطره ذكرى المهدى ، رفع بصره إلى فوق ، وأخذ يدعو الله أن يقرب أيام الرجعة ، أيام العودة المنتظرة للمهدى — رافع لواء الدين — حيث يحل فى الأرض فيطهرها من فسادها . ثم يخفض بصره ، ويمسح لحيته المخضلة بالدموع ، ويأخذ السيف فيقبله بشغف عظيم .

ثم يقوم إلى عشائه ، فإذا ما فرغ دخل فراشه ، ولا يمضى

عليه وقت طويل ، حتى يستغرق فى نوم مطمئن يحلم فيه بماضيه الأغر ، ومستقبله الحافل بعودة المهدى . وفى الفجر يقوم فيؤدى صلاة الصبح حاضرة ، ثم يقرأ فى أوراد الجلشانى وكتاب دلائل الخيرات . حتى إذا ما أرسلت الشمس أشعتها مخترقة نافذته الضيقة قام متمهلا ، حاملا قفته على ظهره ، ووجهته « الحلمية » ؛ ليبدأ طوافه اليومى .

وهكذا كانت حاله منذ هبط « القاهرة » لخمسة عشر عاماً خلت ، ولم يغير شيئا من نظام حياته . هدمت منازل ، وأقيم غيرها ، ومات أناس وكبر أطفال ، و « عم متولى » لا يعرف من « القاهرة » وضواحيها غير الجهات التى تعود أن يطوف بها . له محلات استراحة فى الطريق ، هى محطات يتناول فيها طعامه ويجلس فترة ؛ وقد خص اثنتين من هذه المحطات بمعظم أوقات فراغه . فالأولى : مسجد صغير ، يتناول طعام الغداء بالقرب من بابه ، فإذا ما أتمه حمد الله طويلا ودخل المسجد فصلى فيه ونام . أما المحطة الثانية فبالقرب من منزل « نور الدين بك » فى « السيوفية » ، يقصدها دائماً بعد صلاة المغرب . هناك بجوار باب القصر يجتمع حوله لفيف من بوابى المنازل المجاورة ، وخدم منزل « نور الدين بك » ، فيتحدثون عن الإسلام فى غابر مجده وكيف حلت به الرزايا ، هنا يقوم « عم متولى » مشرق الجبين ، فيروى للجمع حديث « الرجعة المقبلة » بلهجة متزنة مهيبة ، وأسلوب أخاذ قوى يأخذ

بمجامع القلوب ، فإذا الجمع كله خاشع مبتهج ، يستمع فى إقبال وتطلع لذلك الولى الجليل ، وهو يتحدث عن ظهور المهدى ، وتطهير الأرض من فسادها ، وعودة الإسلام إلى سالف عظمته . فى ذلك الوقت يخرج « نور الدين بك » من باب منزله متوكئا على عصاه الثمينة ، فيتقدم نحو « عم متولى » ، يحييه ويلاطفه ، ويغدق عليه عطيته ، ثم يفارقه وهو يسعل سعال الأبهة والكبرياء .

ويأتى « إبراهيم بك » نجل « نور الدين بك » — وهو شاب مهذار لعوب ، فى السادسة عشرة من عمره — فيقترب من « عم متولى » ويصيح به قائلا :

أمازلت تروى وقائع الحروب وحوادث المهدى ياعم متولى ؟

— أرويها وأفتخر بها . لقد كنت قائداً لألف عسكرى . . . !

فيقهقه « إبراهيم بك » ملء فيه ، ثم يعتدل فى وقفته متظاهراً بالخشوع ، ويزرر سترته ، ويصلح طربوشه ، ويرفع يمناه إلى رأسه مؤدياً التحية العسكرية ، ثم يخرج قرشا من جيبه ويدفعه إلى « عم متولى » قائلا :

« أرجو منك أن تعطينى قليلا من اللب والفول السودانى بقرش صاغ . . . ياجنرال !! ؟

* * *

فى عصر يوم من الأيام ذهب « عم متولى » إلى منزل « نور الدين بك » ، فجلس بجوار الباب على عادته ، وأخذت

الأطفال تهرع إليه لتشترى من بضاعته كما تفعل دائماً ، وانطلق الخدم يفدون إليه من مختلف الجهات ، ويلتفون حوله صفوفاً متراصة ، حتى إذا انتظمت حلقة الاجتماع ، وقف « عم متولى » يحدث الجمع حديثه المعهود . وبينما الجمع يستمع مشغوفاً بأقواله الساحرة ، إذ أقبل « إبراهيم بك » وصاح :

« يا جنرال . . . ! »

فتوقف الخطيب عن الكلام ، وحول الناس نظرهم غاضبين نحو الفتى المهذار ، يستوضحون الأمر . وتقدم « إبراهيم بك » غير مكترث بمن حوله ، وأتم كلامه قائلا :

« . . . والدى يريد أن يراك ، فأرجو منك أن تتبعنى . . . ! »

فأسف الحفل لهذه المباغتة ، وخرج « عم متولى » من الحلقة حاملا قفته على ظهره ، ومشى مشيته الهادئة متجهاً نحو الباب ، بعد أن شيع أتباعه المخلصين بنظرة عطف واعتذار . وتبع « إبراهيم بك » إلى حديقة القصر ، واخترقا معاً طريقا طويلا ينتهى عند مدخل « المنظرة[1] » حيث كان « نور الدين بك » ينتظرهما جالساً على مقعده الكبير . فأقبل « عم متولى » مسلماً ، فأجلسه البك بجواره على الأرض بعد أن صرف ابنه . ومضت فترة صمت صغيرة كان يردد أثناءها « عم متولى » بصوت خافت شكره لله ، وصلاته على النبي . وأخيراً تكلم « نور الدين بك » ، فأخبر

---

(١) هى المعروفة « بالسلاملك » .

« عم متولى » بعد مقدمة قصيرة أن السيدة الوقور والدته كثيراً ما سمعت بأخباره وصفاته ، فأحبت أن تتعرف إليه ؛ لتستمتع بأحاديثه الدينية الجليلة وتواريخه الشائقة عن الإسـلام . فاختلج قلب « عم متولى » سروراً لمـا علمه من أن شهرته قد اخترقت جدران المنزل ووصلت إلى آذان السيدات ربات الخدور . وقام « نور الدين بك » متجها نحو جناح الحريم ، وسار خلفه « عم متولى » ، واخترق كلاهما ممشى عريضا ، وولجا باباً ضخماً يوصل إلى حديقة السيدات ثم صعدا درجات شرفة مظلـة ، ودخلا ردهة عظيمة لم يكد يطأ « عم متولى » عتبتها حتى سحرته فخامتها ، فامتلأ قلبه بالروعة والخشوع ؛ إذ أنه لم ير حتى فى قصر المهـدى قاعة تمـاثلها اتساعاً وفخامة . وفيما كان « عم متولى » مستغرقا فى دهشته ، طرق سمعه صوت نسوى ضعيف يرحب به . فالتفت ناحيته فألفى ربة القصر جالسة غير بعيدة منه تدخن على متكإ كبير ، بجوارها تابعة واقفة ، فإذا بها سيدة مقوسة الظهر ، مجعدة البشرة ، تضع النظارات الذهبية على عينيها ، وتلبس لبوساً قاتماً . فتقدم نحوها ، وقبل يدها النحيلة ودعا لها بطول العمر ودوام الخير . ولمـا تم التعارف بينهما تركهما « نور الدين بك » وخرج لشأنه . وتكلمت السيدة فأظهرت « لعم متولى » سرورها بمقدمه ، ورغبتها فى سماع أحاديثه . فخفض الرجل من بصره ، وأخذ يجمع فى فكره رواياته وحوادثه ، ثم رفع رأسه ؛ وبدأ يفيض بمـا عنده بلسان طلق ولهجة مؤثرة خلبت لب السيدة . فلمـا أتم حديثه غمرته بعطاء كبير لم يكن يحلم به ، وأحاطته

بضروب من الإجلال أذهلته وأخجلته ، فخرج ولسانه يردد كلمات الشكر والولاء لها ولأسرتها . وما كاد يصل إلى حديقة الحريم حتى أقبلت عليه طائفة من الخادمات ، أخذن يحمن حوله ، ثم جعلن يتبركن به ، ماسحات أيديهن بجلبابه ، وطلبن منه أن يبيع لهن شيئاً من بضاعته ، فجلس على الأرض مغتبطاً ، وفتح قفته العتيقة ، وأخذ يبيع لهن حتى نفد كل ما عنده . فقام من فوره إلى الجامع وصلى أربعين ركعة شكرا لله على عطيته الجزيلة .

* * *

منذ ذلك اليوم أخذ « عم متولى » يقصد دار « نور الدين بك » حيث يقابل فيها بالترحاب والإجلال ، وتغدق عليه النعم الوافرة . فتغير حاله ، وصار يمشي مشدود القامة ، لا يتكلم إلا بصوت جهوري . واستأجر غرفة حسنة الموقع ، جديدة الأثاث ، واستبدل بالجبن والكراث والفجل : الأرز والخضر كل يوم ، واللحم مرتين في كل أسبوع . واستطاع أن يضخم عمامته ويطيلها ، وأن يوسع أكمام جلبابه ، وأن يلف حول كتفه مطرفا[1] من الكشمير الرخيص ، وأن يحتذى المركوب الأحمر اللامع ، ويتمنطق بالحزام الحريري ذى الهداب الطويل . ثم ترك رويدا حرفة البيع ، وتخلص من حياة الطواف المتعبة . ونعم بالنوم الطويل الهنى ، وجعل يتصدق على الفقراء بالعطايا الطيبة ، فعرف

---

(١) « شالا » .

بينهم بنصير البائسين . وأمكنه أن يذهب إلى المساجد فى أوقات فراغه ليحضر دروس الوعظ والإرشاد فيتسنى له أن يلقيها بعد ذلك على مسمع من الهانم والدة « نور الدين بك » .

وذاع صيته فى الحى ، فتهامس الناس به ، وجعلوا يتناقلون أخباره ؛ لقد اختفى شبح « عم متولى » بائع اللب والفول السودانى رجل الفاقة والضعف ، وحل مكانه الدرويش الكبير . . . !

* * *

وبينما كان رهط من أتباعه جالسين أمام دار « نور الدين بك » منتظرين حضوره ، تكلم أحدهم قائلا :

« أتظنون ياجماعة أن « عم متولى » رجل صالح فقط ، يحسن التحدث عن الإسلام فى أسلوبه البليغ ؟ »

فسأله أحدهم :

« إذن من تظنه يكون ؟ ! »

فأجاب الرجل فى تحمس :

إنه ولى من أولياء الله ، قطب من الأقطاب العظام .

— ومن أعلمك ؟

— أدم النظر فى عينيه قليلا تر نورا غريباً يشع منها ، وهذا دليل الولاية . . .

ثم تنحنح وقتا ، وانحنى عليهم يهمس :

« لقد حدث لى معه حادث لم أخبركم به خشية ألا تصدقونى ..!؟ »

فقال الجمع وقد تدانوا حوله :

تكلم ! تكلم !

— كنت أسير معه مرة ، فى حارة « سيدى شاويش » والوقت مساء ، لا ينير الحارة إلا مصباحان من النفط نورهما خافت ضئيل . . . وبغتة هب الهواء شديداً فأطفأ المصباحين ، وإذا نحن فى ظلمة حالكة فاعترانى جزع مفاجئ ، وأمسكت يد « عم متولى » وشددت عليها ، فغمغم : لا تخش شيئاً ؛ نحن فى حماية الله ! !

وبينما الجمع يصغى لحديث المتكلم ، إذ بدا رجل من الحلقة وأنشأ يقول :

« الآن يتيسر لى ، وقد سمعت حديثكم ، أن أجهر بما أعلمه عن ذلك الولى الصالح الذى عاشرناه كثيراً ، ولم نعرف من حقيقة شخصيته إلا قليلا . »

فحول الجمع أنظارهم إليه ، وقال له أحدهم فى شوق وتطلع :

« وماذا تعرف أنت من شخصيته ؟ ! »

فقال الرجل بصوت حبيس ، وقد احتقن وجهه :

« إنه المهدى ، المهدى المنتظر ! »

فاشرأبت الأعناق للرجل ، وتهامس الناس :

« المهدى ! . . . المهدى المنتظر ؟ ! »

وتابع المتكلم حديثه بلهجته السابقة ، وصوته يرتجف انفعالا :

« لقد شاهدت سيف النبوة فى صندوقه ، ولما لمسته بيدى

استطعت أن أشفى ولدى ، ولدى الذى عجز الأطباء عن مداواته ، وكان على شفا الهلاك . . . ! »

واندفع الناس يتسابقون فى سؤال الرجل ، وانطلق الرجل يجيبهم فى إسهاب وتفصيل .

وكثر اللغط وازدحمت الحلقة بجموع جديدة جاءت تسأل ما الخبر ، وتصغى إلى حديث المتكلم عن سيف النبوة وكرامة « المهدى » الذى بعثه الله ثانية هادياً للبشر .

وظهر فى ذلك الوقت « عم متولى » من بعيد ، ولمحه الحشد ، فهدأت الجلبة ، وأسرع الناس يوسعون له طريقاً بين صفوفهم المتراصة .

وجاء « عم متولى » يسير بمشيته المتئدة فى جلال ووقار ، ويبتسم لمستقبليه ابتسامته الحلوة الهادئة ، فخشع الناس من حوله ، وأقبلوا عليه متزاحمين ، يقبلون أنامله وأطراف وشاحه .

وتقدم الرجل الذى لمس سيف النبوة وقال :

« يا مولاى ! يا منقذ ابنى من الهلاك ! لقد عرفناك بالرغم من تسترك ، فأنت « صفى الله » بعثك سبحانه لهداية البشر ، أنت خليفة النبى ، أنت المهدى المنتظر ! »

فحدق « عم متولى » فى وجه الرجل مدهوشاً وقال :

ماذا تقول يا رجل ؟ أأنت تهذى ؟

— لن تستطيع إخفاء شخصيتك الكريمة عنا بعد اليوم . نعم أنت المهدى ، خليفة النبى ، وحامل كلمة الحق بين الناس !

— اسكت ! اسكت ، فليس لى هذا الشرف العظيم !

— ألم تشف ابنى من الهلاك ؟ !

— أنا ؟ !

وتقدم الرجل الذى روى حادثة الحارة المظلمة ، وقال :

ألم تستنر الحارة بوجهك المضىء ؟

— أنا ؟ ! أنا ؟ !

وقال المتكلم السابق :

« إن أبا بكر الصديق — رضى الله عنه — زارنى فى الرؤيا وكشف لى عن شخصيتك » .

فهمهم « عم متولى » فى صوت ضعيف ، وقد استند إلى شخص بجواره :

« أبو بكر الصديق كشف لك عن شخصيتى ؟ ! »

ولاذ بالصمت وقتاً ، وهو يحدق أمامه ، ثم أخذ يقول فى صوت المحدث نفسه :

« يا أولاد ! المهدى رجل عظيم ، أجل منى وأكبر . وما أنا إلا عبد صالح من عباد الله . . . »

ولم يطل جلسته ، بل عاد إلى داره مبكراً ، وهو غارق فى أحلامه .

ولم يكد يتنفس صبح اليوم التالى ، حتى سمع « عم متولى » طرقاً على بابه ، فقام يستجلى الخبر ، فإذا هو برجل معصوب الرأس ، هزيل الجسم ، يدنو منه ، ويتعلق بثيابه ، ويئن مستعطفاً :

دعنى ألمس سيف النبوة من يدك الطاهرة .

— سيف النبوة ؟ !

— خلصنى من آلامى يا مولاى ، أشفق على مريديك الضعفاء يا خليفة النبى العظيم !

وأدخله « عم متولى » داره ، وأبقاه فى رعايته اليوم كله ، وهو يقرأ على رأسه طائفة من الأوراد . ولما دنا المساء أرقده بجواره ، وسيف النبوة تحت رأسه .

وطلعت شمس اليوم التالى على الرجل المريض ، فألفى نفسه منشرح الصدر ، موفور النشاط ، على حالة من الصحة لم يعهدها من قبل . فقام إلى « عم متولى » وأهوى على يديه يشبعهما لثماً ، وصوته يجأر بالشكر والدعاء .

ومضت الأيام ، فأصبحت دار « عم متولى » كعبة الناس من كل صوب ، ويقصدونه استشفاء من أمراض أبدانهم ، ووساوس نفوسهم . وقل خروج « عم متولى » من منزله : فكان فيه جل وقته تائها فى أحلام لا نهاية لها ، فإذا صحا من هذه الأحلام أخرج سيفه ووضعه على ركبتيه ، ثم انطلق يحدق فيه بذهول .

ويوما رأى « عم متولى » السيدة الجليلة والدة « نور الدين بك »

تأتى لزيارته فى حفل من توابعها ، وما إن شاهدته حتى ركعت أمامه خاشعة ، وأخذت بذيل جبته ؛ وجعلت تقبلها وتقول :

« يا خليفة النبى العظيم ! لقد جئتك خاضعة ذليلة ، أطلب رضاك . . . ! »

* * *

منذ ذلك اليوم حبس « عم متولى » نفسه فى حجرته لا يبرحها قط ، وكان تارة يستقبل زواره ، وطورا يقفل باب الحجرة بالمفتاح ولا يدع أحداً يقربه ، ويجلس مسنداً ظهره للحائط ، ويسبل جفنيه . ويقضى على هـذه الحالة ساعات طوالا . ثم يهب بغتة من غفوته وهو مضطرب محموم ، فيجرد سيفه من غمده ، وينطلق طاعناً الهواء هنا وهناك ، وهو يقفز فى الغرفة صائحاً بالشياطين أن اخسئوا . ويظل كذلك حتى يسقط على أرض الغرفة فاقد الوعى .

وكثيراً ما سمعه الجيران يصيح هذا الصياح ، فيعرفون أن الولى الصالح فى ساعات خلوته يناجى أسراره العظام ، فيتجمعون حول بابه مرهفى الآذان ، تسرى فى نفوسهم الروعة والإجلال . وظل « عم متولى » على هذه الحال بضعة أسابيع .

وكان أن شوهد مرة يخرج من حجرته مهرولا مشعث الشعر ، وعيناه متقدتان كالجمر المستعر ، يلوح بالسيف يمنة ويسرة . . . وانطلق إلى القهوة القريبة ، واندفع يخبط بسيفه فى الجالسين ،



ويصرخ فيهم أن اختفوا أيها المردة الخاسرون . . . فتألب عليه الناس يمنعونه .

وخر الرجل أخيرا بين رجال الشرطة ، وهو يهتف فى صوت ضعيف قائلا :

« الحمد لله . لقد أديت رسالتى ، وأتممت جهادى » .

وتخاذلت قواه . . .

انتهى

بحمده تبارك وتعالى

محتويات الكتاب